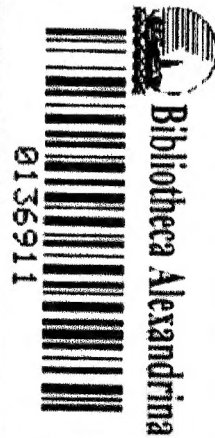
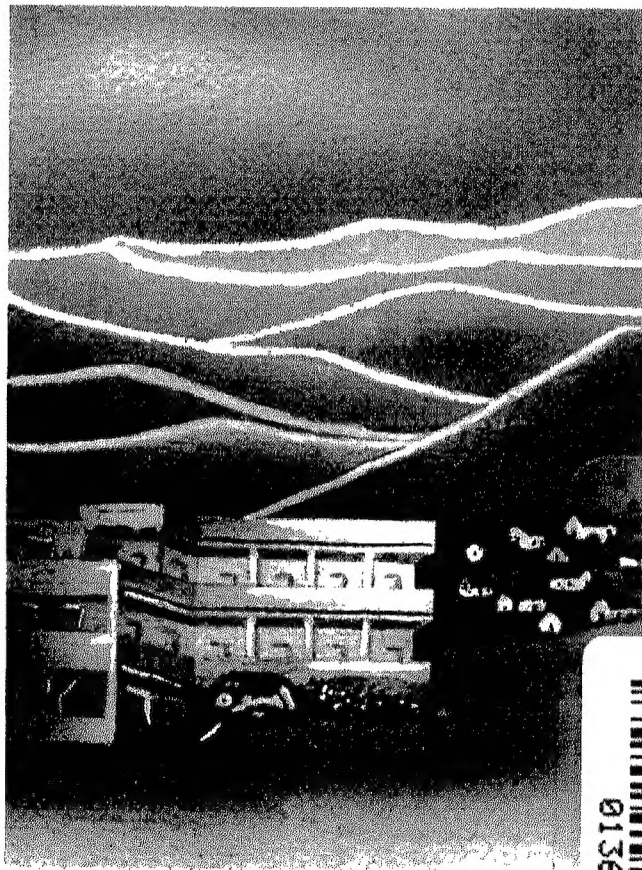


زوهراب غنتبليان

کتابخانه من جهان کتب

قصص و حکایات



نقاهان الأرمنية
نزار انخسايي

هذا الكتاب

أَحَبُّ الْمُؤَلَّفِ مَسْقُطُ رَأْسِهِ
كَسَبَ ، ، الْبَلَدَةَ الْمُسْتَلْقِيَةَ فِي
حُضَانِ تَلَالٍ خُضِرٍ عَلَى قِمَّةٍ مِنْ قَمَمِ
جِبَالِ اللَّاذِقِيَّةِ ، فَأَسْتَوْحَى مِنْهَا قِصَصَهُ
فَذَهَ وَكَلَّ مَا كَتَبَ مِنْ أَدَبٍ .

وهو مُعَجَّبٌ بِأَبِيهِ (جورج :
١٩٠٢-١٩٧٦) ، الذي كان يملك من
كَاءِ الْفِطْرَةِ وَسُرْعَةِ الْبِدِيَةِ وَبِرَاعَةِ
الْحَدِيثِ ، مَا جَعَلَهُ مُصَدِّرَ وَخَيْرٍ لَهُ
إِلْهَامٍ فِي مَعْظَمِ الْحِكَايَاتِ الَّتِي ضَمَّتْهَا
لِذَا الْكِتَابِ .

وبدا أنْ إعْجابه بِأَبِيهِ ، وما يُضْمِرُهُ لَهُ
مِنْ عَظِيمِ الْوَفَاءِ ، قد أَمْلَى عَلَيْهِ أَنْ يَرْوِيَ
لِحِكَايَاتٍ مَنْسُوبَةً إِلَى الْأَبِ ... فَكَأَنَّهُ
نَدَّمَ فِيهَا لِلْقُرَّاءِ فُصُولاً مِنْ سِيرَةٍ ذَاتِيَّةٍ
هَيْمَةٍ !

وَأَنْتَ لَتَجِدَ ، فِي تَضَاعِيفِ
كِتَابٍ ، مَلَاخَ مِنْ حَيَاةِ الْحَالِيَةِ الْأُرْمَنِةِ
، كَسَبَ وَعَيْرَهَا مِنَ الْمُنْذَن السَّوْرِيَّةِ ، فِي
إِيمَارَسُونَ مِنْ عَمَلٍ وَيَخَيُّونَ مِنْ أَمَلٍ ،
شَارِكُهُمْ مَعَانِيَهُمْ وَتَشَاظِرُهُمْ أَفْرَاحُهُمْ
سَرَائِهِمْ .

صَوْت
مِنْ جَنَّةِ الْكَسْبِ

التّضيد الضّوّي :

إشيلية للدراسات والنّشر والتّوزيع

دمشق ٤٣٦٣ ✉

لوحة الغلاف والإشراف الفني

الفنانة ريمًا بطرس

834.99226
 ع ت
 ٤١٦٤١

زوهرا بنت بليان



834.992
 ع ت
 ٤١٦٤١

Library of the Ministry of Education
 Damascus, Syria

صوت من جهل كسب

قصص وحكايات

نقلها عن الأرمينية
 نزار الخليلي



الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٩٣

إلى روح والدي جورج صوغومون عتيليان ،
الذي عانى من الفقر واليتم والتشرد ، فآزداد فهماً للحياة ،
وقُدرةً على تجاوزها ، دون أن تُفارقة بسمته السّاخرة ...
أهدي كتابي الأوّل هذا ،
فإنّ ما فيه من الحكايات .. هو منه وإليه .

زوهراب

إلى روح والدي جورج صوغومون عتيليان ،
الذي عانى من الفقر واليتم والتشرد ، فآزداد فهماً للحياة ،
وقُدرةً على تجاوزها ، دون أن تُفارقة بسمته السّاخرة ...
أهدي كتابي الأوّل هذا ،
فإنّ ما فيه من الحكايات .. هو منه وإليه .

زوهراب

خشم النحل

كان « الحاجي أرتين » ، صانعُ السَّلاح في كَسَب ، من أعزُّ أصدقاء أبي . وذات مساءً عرَّج ، بعد أن أقفل دكانه ، على بيتنا لأحتساء كوبٍ من القهوة وتزجية بعض الوقت في الحديث مع أبي .

رحَّب به أبي أحسنَ ترحيب . وبادر يطلب من أمي أن تُعدَّ كُويُن من « القهوة الوَسَط » . وهُنا أخرج الحاجي أرتين غُلبة ثَبْغه ووضعها على الطاولة ، وفي انتظار أن تُصِل القهوة أخذ يُلَفَّ سيكارة « غليظة » وأبي يَحْدُو حَذْوَه .

جعل أبي يتحدَّث ويُفِيض في حديثه ، عن الماضي والحاضر والمستقبل ، وعن كلِّ ما يهَمُّ النَّاسَ في تلك الآونة ، في مُبتدأِ الحرب العالميَّة الثانية . وأمَّا الحاجي أرتين ، فكان يتحدَّث عن مُغامراته الأسطوريَّة وتجاربه في مجال الصَّيْد ، وعن سَير الأمور في بيته وفي مزرعته تلك الواقعة في منطقة « جاقالْحَقْ » التي تبعد ثلاثة كيلومترات عن

كَسَب ... وأترسل يتحدث ، مُتباهاً ، عن مُبتكراته في صُنع
السَّلاح ، وعن شجاعته في مُواجهته لمختلف أنواع الأفاعي التي صادفها
في حياته ... إلى غير ذلك مما يُقال لتزجية الفراغ .

حتى إذا أنتها من شُرب القهوة وتدخين السَّكائر ، نهض الضَّيف
أستعداداً للأنصراف . فرأى أبي أنَّ من حُسْن الضَّيافة أن يُرافقه حتى
حُدود المزرعة .

في تلك اللحظة لمح أبي جماعة من النحل ، الذي يُريّه في المزرعة ،
تتطاير وتطِنّ طنيناً قوياً . فتعجّب العمّ أرّتين ، التحيل الجسم لكن المتين
البنية . وأمّا أبي فقد أخذ يُتابع بنظره النحل المتطاير ... إلى أن رأى
خَشَرمًا من النحل مُتجمّعاً ومُتعلّقاً بغصن شجرة ، ففرح أيما فرح
بهذه « الأسرة » الجديدة ، وعزم على اقتناصها !

كان التحل يُتابع تجمُّعه حول الخَشَرم ، والطنين يستمرّ رتيباً ،
والهواء العليل ينساب مُنبأً بأقتراب نوم الطَّبيعة في ذلك الأصيل .

هتف أبي :

— قُدومك خير ، يا حاجي أرّتين ! لسوف تذوق ، يوماً ما ،
عَسَلنا ! أنتظرنى هنا لحظة حتى أُحضِر جَرّةً أقتنص فيها هذا الخَشَرم .
إيّاك أن تُفادر المكان ، فإنّي في حاجةٍ إلى مُساعدتك . يُمكنك أن
تتصوّر أننا في ... عُرْسٍ بديع !

فأقعد الحاجي أرّتين القُرُفصاء عند الجدار ، وأسند بُندقِيته إلى
جواره ، مُنتظراً عودة أبي بالجرّة .

ولكنّ صانع السَّلاح ما لبث أن ملّ الانتظار وصَجِر من سماع هذا

الطَّيْنِ الْمُرْعَج ، فَهَمَّ بِأَنْ يَمْضِي إِلَى سَبِيلِهِ . وَلَكِنْ أَسْتَرْجَاعَهُ لِكَلِمَاتِ أَبِي ، الْمُسْتَعِينَةِ بِهِ ، جَعَلَتْهُ يَبْقَى فِي مَوْضِعِهِ كَيْ يُؤَدِّي الْعَوْنَ الْمَطْلُوبَ .

ثُمَّ إِنَّ أَبِي عَادَ فِي يَدِهِ الْجُرَّةَ . وَبَدَأَ عَمَلَهُ بِأَنْ حَذَرَ ضَيْفَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِأَيَّةِ حَرَكَةٍ قَدْ تَهَيَّجَ النَّحْلُ ، مُؤَكِّدًا لَهُ أَنَّ النَّحْلَ مُسَالِمٌ إِنْ لَمْ يُسْتَسْرَأْ !

قال الحاجي :

— وَلَكِنْ ... مَا هِيَ الْمُسَاعَدَةُ الَّتِي تُرِيدُنِي أَنْ أَقْدِمَهَا لَكَ ، يَا جُورْج ؟ قُلْ لِي ، فَقَدْ تَأَخَّرَ الْوَقْتُ عَلَيَّ ، وَنَحْنُ فِي مَوْسَمِ الْأَفَاعِي ، وَبَيْتِي كَمَا تَعْلَمُ بَعِيدٌ !

قال أبي :

— وَلَا يَهْمُكَ ، حَاجِي أَرْتِينَ ! بِالصَّبْرِ يَنْتَهِي الْعَمَلُ فِي خَمْسِ دَقَائِقَ . الْآنَ تَصْعَدُ الشَّجَرَةَ ، وَتَعْتَلِي هَذَا الْغُصْنَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ الْحَشْرَمُ . وَلِحِظَةٍ أَقْرَبُ أَنَا جَرَّتِي مِنَ الْغُصْنِ ، تُرْكُلُهُ أَنْتَ بِقَدَمِكَ رَكْلَةً خَفِيفَةً ، فَيَسْقُطُ الْحَشْرَمُ كُلُّهُ فِي الْجُرَّةِ ، وَتَنْتَهِي الْمِهْمَةُ ... هَذَا كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ ، يَا حَاجِي أَرْتِينَ !

وَصَعِدَ صَانِعُ السِّلَاحِ إِلَى الشَّجَرَةِ ، مُتَرَنَّحًا ... وَأَخَذَ فِي تَنْفِيزِ الْمِهْمَةِ .

وَلَكِنْ بَدَأَ أَنَّ الرَّكْلَةَ لَمْ تَكُنْ خَفِيفَةً عَلَى نَحْوِ مَا يَنْبَغِي ، فَثَارَ النَّحْلُ ، وَجَعَلَ يَدُورُ حَوْلَ الْحَاجِي أَرْتِينَ وَهُوَ عَلَى الشَّجَرَةِ ، وَيَحْطُّ عَلَى يَدَيْهِ وَوَجْهِهِ . فَصَاحَ بِهِ أَبِي يُحَذِّرُهُ أَنْ تَصْدُرَ عَنْهُ أَيُّ حَرَكَةٍ تُغَضِبُ النَّحْلَ ! وَلَكِنْ الْحَاجِي أَرْتِينَ ، غَيْرَ الْمُجَرَّبِ ، خَافَ مِنَ النَّحْلِ ، وَرَاحَ

يَهْشُهُ عَنْهُ بِيَدَيْهِ وَرَأْسَهُ ، فَازْدَادَ النَّحْلُ هَيَاجاً وَأَشْتَدَّ هُجُومُهُ عَلَيْهِ . فَمَا
كَانَ مِنَ الْحَاجِي أَرْتِينَ إِلَّا أَنْ قَفَزَ مِنْ عَلَى الشَّجَرَةِ وَهُوَ يَشْتُمُ بِأَقْدَعِ
الشَّتَائِمِ ، وَيَصْرُخُ مِنَ الْأَلَمِ ، وَيَجْرِي هُنَا وَهُنَا ، وَيَذُبُّ عَنْهُ النَّحْلُ ...
إِلَى أَنْ آرْتَمَى عَلَى الْأَرْضِ !

فَتَرَكَ أَبِي الْجَرَّةَ ، وَأَسْرَعَ إِلَى إِسْعَافِ ضَيْفِهِ .

وَلَكِنْ أَيْ إِسْعَافٍ ! لَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذْلَ . فَالْحَاجِي أَرْتِينَ غَدَا
مُتَوَرِّمٌ الْوَجْهَ وَالْيَدَيْنِ مِنْ كَثْرَةِ مَا نَالَهُ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ « الْفَيْتَامِينِيَّةِ » ! إِلَّا
أَنْ لِسَانَهُ - لِحْسَنَ الْحِطِّ ! - لَمْ يُصَبِّ بِأَذَى ، فَقَدْ ظَلَّ يَفِيضُ بِسِيلِ
مِنَ الشَّتَائِمِ الْمُتَتَقَاةِ !

وَيُنْقَلُ أَبِي الْمَصَابِ إِلَى الْبَيْتِ . وَيَبْعَثُ إِلَى أَهْلِهِ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ
الْحَاجِي أَرْتِينَ « شَاءَ أَنْ يَقْضِيَ اللَّيْلَةَ عِنْدَنَا فَلَا تَقْلُقُوا عَلَيْهِ » ! وَشَرَعَ فِي
مُعَالَجَتِهِ ، بِأَنْ يَضَعُ ، عَلَى وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ ، الْكِمَادَاتِ الْمَغْمُوسَةَ فِي مُحْلُولِ
الرَّمَادِ .

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، أَضَافَ أَبِي ، فِي مُذَكَّرَاتِهِ ، مَسَبَّاتٍ جَدِيدَةً لَمْ يَكُنْ
قَدْ عَرَفَهَا مِنْ قَبْلِ ، أَبْدَعَهَا فِكْرُ حَدَادٍ ، صَانِعِ سِلَاحٍ ، قَدْ تَوَرَّمَ وَجْهُهُ
مِنْ لَسَعَاتِ النَّحْلِ !

هرة أبي

قُبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، نزل في فندقنا بَكَسَب ضابطٌ فرنسيٌّ ترافقه أسرته ، مع كلبٍ تبدو عليه الشراسة .

قام أبي باستقبال الضيف ، وعرفه على نفسه – بفرنسيّة السّاقِ « خاجو » الرّكيكة – كما عرفه على المكان . ثمّ أوعز لآخذ التّرتيبات اللازمة لإقامة الضّابط وأهله ، ولم ينسَ أن يُخصّصَ رُكناً للكلب رُبط فيه ، وكانت عينا الكلب الحمرّوان ثراقبان ، خلال ذلك ، هرة الفندق المُدلّة ، وهي تروح وتجيء غيرَ عابئةٍ بأحد ثمن حولها .

ثمّ إنّهُ خطر للضّابط الفرنسيّ أن يستمتع بمنظر الهرة والكلب وهما يتقاتلان ، فقام بفكّ رِباط كلبه ... الذي ما كاد يتحرّر من قيده حتّى أنقضّ على الهرة دونما هواده .

آرتاعت الهرة ، وأنطلقت تُعدو ناجيةً بنفسها ، وتسَلّقت شجرةً في فناء الفندق ، واستقرّت على غُصنٍ فيها كالآمنة . والضّابط الفرنسيّ يُقهقه في ذلك عالياً وهو يتَمَلّى النّظر من الهرة المدعورة والكلب

المُستوحش . وبدا الكلب وكأنه آستوعب مطلب سيده ، فلبث تحت الشجرة مُترقباً ، وهو ينبج بصوت مُنكر .

ولكن بدا ، أيضاً ، أنّ الهرة لم تحتمل عبث هذا الغريب الذي حلّ في الفندق ... فإذا هي تتحفّز ، مُستجمعة كل قوتها ، لتتقض من أعلى الشجرة ، على غير توقّع ، وتخطّ كصخرة على ظهر الكلب ، وتتشبّث بجلده ، وتروح تُعمل فيه أنيابها .

بُوغت الكلبُ ، وأخذته الذعر ... فجعل يعدو في الفناء كالمسحور تخلصاً من الهرة المُمسكة بظهره . ولكنّها لم تتخل عنه ، بل زحفت إلى عنقه ، حتّى وصلت إلى وجهه ، وهي تُعمل فيه تمزيقاً !

وخشي الضابط على كلبه ، فهرّع إلى أبي يستنجد به ، بإشارات من يديه ورأسه ، ومُستعيناً بلغة السّاق الرّكيكة ، مُلتمساً تحرير كلبه العزيز من براثن هذه الهرة القطيعة !
وأبي يتبسّم ، ويُزغرد قلبه فرحاً .

وبمساعدة العاملين في الفندق ، تمّ تخلص الكلب الذي كان قد ضُمخ بدمه .

ثمّ إنّ الضابط الفرنسيّ سأل أبي ، مُتعبجاً ، كيف أنّه أستطاع أن يُروّض هرّته ترويضاً جعلها أقوى من الثّير ؟

فأجابه أبي : قطبنا لا تؤمن بمقولة من صَفَعَكَ على خدّك الأيمن فأدِرْ له خدّك الأيسر ، بل : العين بالعين والسّنّ بالسّنّ والبادئُ أَظلم !
فأفجِم الضّابط الفرنسيّ ، ولاذ بغرفته لا يلوي على شيء .

مبيد حشرات جديد

ذات صباح ربيعيٌ بديع ، خرج أبي من البيت مُتوجّهاً إلى قرية
« قراهوران » لشراء شيءٍ من التبغ ، من عند صديقٍ له هناك يُدعى
« أفيديس تيتيزيان » .

فمرّ ، في طريقه ، بفلاحٍ يفلح الأرض بمحراثٍ يجره ثوران قويّان .
فسلّم أبي عليه ، وجلس بقربه ، ثم أخذ يلفّ سيكارةً ليُدخنها وهو
يتملّئ النظر من سحر الطبيعة ، التي بدت له أشبه بلوحةٍ فنيّةٍ تحت أشعة
الشمس الدافئة وأريج الأزاهير العطّرة .

كان الثوران يجرّان المحراث بخطىٍ وثيدةٍ وأستسلامٍ أعمى ، يشقان
الأرض التي تتموّج تحت سيّكة المحراث ، مُحضّنة أحلامَ فلاحٍ طيّبٍ
مُستبشرٍ بالخير . كان « العمّ كيورك » يقود الثورين ، والمُسّاس في يده ،
يُخاطب الثورين الطيّعين ويُسجّعهما بكلماتٍ حلوةٍ وكأنّه يُخاطب
ولده ... وأبي يُراقب هذا المشهد مُبتهجاً ، وهو يسحب نفساً من

سيكارته بعد نفس حتى رثيته ، ثم يُمَجِّج الدخان مَوْحِداً الله ، مُثْنياً على قدرته وجميل صنعه .

فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان : قَفَزَ الثوران ، فقطعا قيادَ نيرهما ، وراحا يَعْدُونَ عَدْواً جُنُونياً بِاتِّجَاهِ أعلى الجبل .

دُهِشَ أبي . على حين أدرك الفلاح أنها « ذبابة البقر » ، التي تلسع البقرة فتؤلِّمها أيما إيلام .

أَضْطَرَبَ أبي كثيراً ، وأشعل سيكاره ثانيةً وأقرب من الفلاح يُواسيه مُحاولاً أن يُخَفِّفَ مِنْ وَقَعِ الحادثة عليه . وهذا يُتَابِعُ بنظره ما يُعَانِيهِ ثوراه العزيزان من أذى هذه الحشرة ، التي يعرف أبي جيداً ما تُسبِّبه من ضررٍ للحيوانات الفلاحين .

هنا « حَبَكْتَ التُّكْتَةَ » عند أبي التَّمَرَّسِ فِي حَبْكِ التُّكْتِ . قال وهو يتصنَّعُ الجِدَّ :

— مِنْ المؤسف أنك لم تسمع ، يا عمَّ كيورك ، بالمبيد الذي أَسْتَحْضِرُهُ « القهوةاتي ميناس » والمُعَدُّ للقضاء على هذه الذبابة !

فتح الفلاح الطَّيِّبَ عينيه على سَعَتَهُمَا ، وَحَدَّقَ فِي أبي مُتَعَجِّباً ، وقال :

— حقاً ، أنا لم أعلم به ولم أسمع . هل قلتَ إنَّه عند القهوةاتي ميناس ؟ ومن أين أتى به ؟ (ويهزُّ رأسه في أسى) إنَّ أحداً لم يُحَدِّثْني ، بعد ، عن هذا المبيد !

قال أبي مُمَعِناً فِي جِدَّتَيْتِهِ :

— أجل ، يا صاحبي ! فَلَتَعَلَمَ ، الآن ، أن مُبِيد ذُبَابَةِ البقر قد تَمَّ
اكتشافه ، وهو عبارة عن مسحوق بُنِّي اللون زهيدِ الثمن . فلتذهب غداً
إلى كَسَب ، تناول فنجان قهوة عند ميناس وتحصل على المبيد !

فسأل الفلاح الساذج :

— وكبف يُستعمل ، هذا المبيد ، يا جورج ؟

أجاب أبي :

— بسيطة ! تنثر المسحوق على ظهر الثور وتدلّكه جيداً حتى
لا تأخذه الريح ... ثم إن رائحته هي التي تطردُ الذباب !

فأعلن الفلاح الطيّب فرحته :

— يا لسعادي !

في صباح اليوم التالي كان العمّ كيورك في كَسَب ، يقرع باب
مقهى ميناس الكبير .

كان العمّ ميناس يعزف على رَبَابته ذات الأوتار الثلاثة ، فتركها ،
وقام يفتح باب مقهاه ، العظيم القديم ، الذي غَيَّر الدُّخانُ لونه على مرّ
السنين . فكان أن آستهلَّ نهاره بالعمّ كيورك ، الفلاح القادم من
قرادوران :

— صباح الخير ، أخ ميناس .

ردّ ميناس :

— ألف صباح جميل . تفضّل . ماذا تشرب ؟ قهوة أم شاي ؟

بادره الفلاح يقول :

— لا هذا ولا ذاك . جئتُك أشتري مُبيداً للذبابَة البقر !

فاجأت هذه الكلمات القليلة القهوائي ميناس . واستعاد قَوْلَه
الرَّجل وكأنه لم يفهمها . فأكد الفلاح :

— قلتُ أريد مُبيداً يطرُد تلك الذبابَة التي تُجَنِّن البقر وتجعله يَهم في
الجبال !!

فأدرك القهوائي أنَّ أحدهم قد مَزَح مع الفلاح الطيِّب هذه المَزْحَة ،
وحَزَرَ أَنَّهُ أُنِي . فاستمهل لحظةً ، ودعاه إلى الجلوس ريثما يُحصِّر له
المُبيد . ودخل إلى المطبخ ، فأعدَّ فنجان قهوة لزبونه ، وقَدَّمه إليه . ثم عاد
فملاً زجاجةً بالماء المُتَبَقِّي من غسيل الفناجين ، ومزجه بالرَّمَاد ، وقَدَّم
الزَّجاجة إلى الفلاح ، الذي أخذها شاكرًا .

— كم تُريد ثمنًا لها ؟

— لا شيء . فأنا لا أتقاضى من الفلاحين ثمنًا لهذا المُبيد . ولست
أشكُّ في أنَّك سوف تُقدِّم لي ، غدًا أو بعد غد ، هديةً من تبغك
الفاخر !

— على راسي وعيني .

قال الفلاح ذلك ، ومضى بالزَّجاجة مسرورًا ، ولسائه يلهج
بالشكر والامتنان .

بعد يومين ألتقى القهوائي بأبي في السَّوق ، فبادر يقول له :

— ويحك ، يا جورج ! أيّ مبيدٍ آبتدعه خيالك الحِصْب وصَبِيَّتَه
على رأسي ؟ أتراني قهواتياً أم صانع أدوية ؟
قال أبي ضاحكاً :

— وماذا فعلت ، يا أخ ميناس ، للرجل ؟ لا ريب أنك أعطيتَه
دواءً ، دواءً ما . فأنا أعرفك جيداً : قلبك طيب ، ولا ترضى أن يرجع
أحدٌ من عندك صِفَرُ اليدين !
فأجاب العمّ ميناس :

— طبعاً . أعطيتَه المبيد ، وأستفاد منه لسلامة نيته ، بدليل أنه أخذه
ثمّ لم يُرني وجهه ... لله درُّك ، يا رجل ! أنت تفعل الفِعلَةَ ، وتحمِّلني
تَبِعَتَهَا !

الولد الضائع

عندما كان أبي يعمل نَجَّاراً ، عُهِدَ إليه ، مرّةً ، بإصلاح
مَنْجور بيتِ آستأجره مُعلِّمُ مدرسةٍ بروتستانتِيٍّ وصل حديثاً إلى كَسَبِ
من لواء الإسكندرون .

وبدأ أبي يعمل ، وراء المنصّة ، في إصلاح الأبواب الخشبيّة المخلّعة
والتوافذ التّالفة ، ويُركّب لها بديلاً عن البلّور المكسّر ، الذي وَصَعَ عشرة
ألواحٍ منه فوق طرف المنصّة وهو يعمل بهمةٍ ونشاط ، على حين كان
مُعلِّمُ المدرسة الفُضُولِيّ ، يقف إلى جواره ولا يُريد أن يُفارقه أبداً ، بل
كان يقوم بمساعدته ببعض عمله . وقد جَهد أبي في أن يُطمئن « السيّد
هرانت » - وهذا اسم المُعلِّم - ويؤكد له أن العمل سينتهي على ما يُرام ،
ولكنّ المُعلِّم كان حريصاً على أن يبقى إلى جانبه ، وعيناه تَرقّان مثل
تلميذٍ خائف .

وفيا هما كذلك وقعت يد المُعلِّم على ألواح البلّور الموضوعة على
المنصّة ، فهوّت إلى الأرض وتهشّم بعضها .

فقال معلّم المدرسة مُرتبكاً :

— لعن الله الشَّيطان . قاتلني الله على ما فعلت !

فطُيَّب أبي خاطره :

— كَسَّرُ البلّور خير ، يا أستاذ ! لا تحزن . غداً أطلب ألواحاً
غيرها ، وأرْكُبها دون تأخير . لا تحزن أبداً . فالحزن يضرّ بالصَّحة .

ردّ المعلم :

— أجل ، أجل . الحزن يضرّ بالصَّحة .

في هذه اللحظة عينها ، سُمِع صوت امرأة ، في الخارج ، وهي
تصرّخ مُعولةً ، ثمّ تندفع إلى الدّاخل ، صائحةً :

— آلفق بي ، يا هرانت ! « جانو » مفقود . هيّا نبحث عنه .

وبدلاً من أن يُهْدَى المعلّم من رُوع زوجته ، جُنّ جنونه هو
الآخر ، وبدأ أشبه بعاصفةٍ في بحر ... وخرجا يتباريان بالصُّراخ ، بحثاً
عن وحيدهما المدلّل الضائع ، جانو .

ورأى أبي أنّ مُتابعة العمل في هذه الحالة غير مقبول، فترك
ما بيده ، ولحق بالزّوجين ، يستطلع حقيقة ما حدث ، أو ... ما يُمكن
أن يحدث . وفي الخارج سَمِعَ أهلَ الحيّ كلّهم وهم يُنادون على جانو ...
وجانو غير موجود !

فأخذ أبي يقول لهم مُهذّئاً :

— يا جماعة ! لا حاجة لهذا الصُّراخ . مَنْ يسمعكم يَسْحَرُ

منكم . حيثما يكون الولد ، الآن ، فإنه عائد إليكم بعد قليل . ربما ألتقي
ولداً في سنّه فراقه . لسوف يعود . لا حاجة لهذا الصّراخ كلّهُ !

فقال المعلم مُعترضاً :

— ولكنّ أبنا لا يفعل ذلك . لم يَعتد الخروج من البيت . إنّه ولدٌ
مُهذّب . ولا شكّ أنّ مُصيبةً نزلت به !

قال أبي :

— آتظنّوا قليلاً . ولسوف يعود أبناكم ، ولا شكّ ، قُبيل المساء .
سلّموا أمركم إلى الله العليّ القدير ، خصوصاً وأنتم إنجيليّون . أصبحوا .

فرّد معلم المدرسة :

— إنجيليّون ، أجل ، ولكنّ هذا شيء آخر . ولا بدّ لنا أنّ نبحث
عن جانو ، الآن .

لم تكن هنالك مجاري لتصريف المياه المالحّة في بلدتنا في ذلك
الحين ، فكان صاحب كلّ بيت يحتفر جورةً فنيّةً لتصريف مُخلفات
بيته ، ويُغطّيها بالّواح من خشب . وكانت هذه الأخشاب تتداعى مع
مرور الزمن ، ويتحطّم بعضها ، فيكشف جانبٌ من الجورة ويظلّ دون
غِطاء . وحدث مرّة أنّ كلباً وقع في إحدى هذه الجُور ولم يستطع
الخروج ففضي غرقاً . كما اتّفق لرجُل راشد أن سقط في إحداها ، وكاد
يفرق لولا أن تنبّه إليه الجيران فهرّعوا إليه يسحبونه من الجورة وهو في
آخر رمق !

فأتّجه ذهن المعلم إلى هذه الحفرة ، وسرعان ما جاء بعضاً طويلةً
وراح يُحرّك مياهها التّيّنة ، مُنادياً :

— جانو ! جانو ! ...

وهو يتنقل بين حفرة وأخرى ... ولكن لا أثر لجانو !

عند المساء ، أقبل جانو وبصحبته واحدٌ من رفاقه !

وما كاد الأب يراه حتى أسرع إليه يضمّه إلى صدره ، ويُغمغم

بحنان :

— ولدي الحبيب !

تاجر الجلود

ذات يوم ، نزل في فندقنا قادمً من دمشق .

وما إن تعرّف على أبي ، حتى أعلمه أنّه مغبّيّ بتجارة الجلود ، وأنّه جاء إلى هذه المناطق قصّداً أن يُلمّ بأنواع الحيوانات البريّة التي تعيش في الجبال والغابات . فلم يخلُ أبي عليه بما يعرف في هذا المضمار ، وراح يُعدّد له أسماء عشرات الحيوانات البريّة والأهليّة التي تعيش في المنطقة ، واصفاً جلودها ، مادحاً إياها ما تستحقّ من مدح .

ففرح النزيل الجديد بذلك فرحاً عظيماً ، وأعرب عن رغبته في أن يحظى ، خلال مدّة إقامته في الفندق ، بناذج من جلود هذه الحيوانات . وأخرج من محفظة نقوده ورقة من فئة مئة ليرة ، ووضعها في كفّ أبي ، وهو يقول :

— يا مُعلّم ! أرجو أن تبعث ، بأسرع ما تستطيع ، صيادين إلى الغابات التي ذكرت ، ليصطادوا لي ما يُمكنهم من هذه الحيوانات ، وأنا أدفع لهم فيها ما يستحقّون من ثمن .

فألقى أبي نظرةً إلى ذات المثة ، وقال وهو يبتسم :
 — سيدي المحترم ! يُسعدنا أن نُلبّي طلباتكم بأقصى ما نستطيع من
 السرعة . أعِدُّكَ بأن أقدم لك ، بعد يومين لا أكثر ، خمسة عشر جلدًا
 على الأقل من أفخم الجلود !
 فشكر التاجر الدمشقيُّ أبي على حُسن تجاوبه ، وتمنّى التوفيق
 للصيادين .

*

وما هو إلا يومان ، حتى كان الصيادون يتواردون إلى الفندق ،
 ويَطْرَحون في فِئائه ما أثَّروا به من جلود ... وقد كانت كما يلي :
 * حاجي أرئين المشهور : جلود ثعلبين وأرنب وأفعى ذات قرون ،
 * انترانيك الشجاع ، من الصخرة : جلود خنزير وقنفذين
 وأرنبين ،

* جانو الأسكوراني : جلود إثنين من بنات آوى وقنفذ وضبع ،
 * هاروت القاراداشي : جلد ثيس برّي وجلد غزال ،
 * خروشيف ، من الكرم العالي : جلود ثعلبين وضبع ،
 * آرام الباشوردش : جلد ثيس برّي ، وحمامتان هديّة لأبي !
 * آرام القارادوراني : جلود ققطين برّيتين وفرخ دبّ ،
 * آرشاق الجيناري : جلود أفعيين بشاريين وضبّ ،

* نوريتس الكوركوني : جلد ثعلب ماء ،

* شابٌ من التبعين : جلدًا جَمَلَيْن .

بدا أبي سعيداً بما أنجزه صيادو بلدته كَسَب ، وفُحوراً بشجاعتهم .
وقد هتأهم من صميم قلبه ، وشكرهم فرداً فرداً على مُبادرتهم لتحقيق
طلبه ... ثم أسرع يرتقي الدّرج إلى غرفة التّزليل العزيز ليُبلغه الخبر .

ثم ما إن صافحت عينا التاجر وجوه الصيادين ، ومرّ بهما على
الجلود المُكدّسة ، حتّى بدا عليه الإعجاب الفائق ، وصاح :

— كلّ هذه الجلود في يومين ؟

ثم أخذ يتفحصها ، وهو يقول :

— يا سلام ! كلّها في حالة جيّدة !

وأخرج محفظة نقوده ، وأخذ يدفع لكلّ واحد من الصيادين
ما يستحقّ ثمنًا لجلوده .

وأما حاجي آرّين ، فإثّه — لحظة دَسّ في جيبه خمساً من ذات
العشر ليرات — مال على أبي لهمس في أذنه :

— قلّ للرجل أن يعود في الأسبوع المُقبل ! فإنّ الحيوانات المُفترسة
تزايد عندنا يوماً بعد يوم !!

*

وسُرعان ما أبدى الرجل رغبته في أن يُسافر في غَدِهِ التالي ، فقال
لأبي :

— أرجو أن تُدبّر سفري إلى اللاذقية .

فحجز له أبي المقعد المجاور للسائق كارنيك . وفي الصّباح رافقه حتى السّاحة ، حيث أشرف بنفسه على تحميل الجلود ، بواسطة الحمالين خليل ومصطفى ، على ظهر الباص المتوجّه إلى اللاذقية .

بدا الامتنان على الرّجل واضحاً ، وشكر أبي بكلماتٍ حارّة . وقبل أن يصعد إلى الباص ، خطرت لأبي خاطرة أسرع يعرضها عليه .

— عندي فكرة ... (وأخذ يتكلّم بعربيّة مُكسّرة) ترى ، هل تُوافقكم جلود القبط البريّة ؟ فإنّ في بلدنا كثيراً منها !

أطرق الرّجل هنيئاً ، ثم مسح جبهته ، وقد آرتسمت على فمه بسمّة واسعة ، وألّفت إلى أبي يُجيبه :

— إنّها فكرة جيّدة ! أرى أنّكم ، في هذه البلدة ، نشيطون ومُفكّرون . أمثلكم من أعماق قلبي .

ودون تردّد مدّ يده إلى جيبيه ، ودفع لأبي مئة ليرة على الحساب ، وقَدّم له بطاقةً بعنوانه بدمشق ورقم هاتفه ، وقال :

— يوم يُلغ عددُ القبط البريّة ، المُحتبّسة ، خمسين أو خمساً وسبعين ، فأخبرني ، لأحضر فوراً ، ونقوم بإجراء التّرتيبات المناسبة .

وغنيّ عن البيان أنّ « أمّ المهمة » كانت تُعَدّ - في ذلك الحين - شيئاً كبيراً ، فلم يكن من السّهل على المرء أن يكسبها بسُهولة ، وإنّ أُسرّة كان يُمكنها أن تقتات بهذا المبلغ مدّة ما .

*

راح أبي يُفكر في الطريقة التي يُحقّق بها لتاجر الجلود ما اقترح عليه من مشروع ، مُستفيداً من ذات المنة الليرة هذه ، حتى جفّاه النوم . إلى أن ألتقي يوماً ، وهو عائذ من السوق ، صاحبه « اصادور قالايجيان » ، وكان هذا قد سمع بقصة زيارة تاجر الجلود لكسب ، فقال لأبي ، دون مقدّمات ، وفي صوته أسفّ واضح :

— عمّي جورج ! أنا أيضاً ، عندي جلود ! ليتك كنت أعلمني بالأمر .

فقال أبي :

— لا تأسف ، يا اصادور ! فالرجل عائذ إلينا عمّا قريب !

وحكى له أمر الخمسين قطعة البريّة ، أو الخمس والسبعين ، التي يتعيّن حبسها حيّة في أحد الإصطبلات ، قبل أن يقوم بإبلاغ التاجر هاتفياً ، فيُسرع بالجيء ، والتسلّم ، ودفع الثمن !

فقال اصادور :

— انا رهن إشارتك ، بروحي وجسمي ، يا عمّي جورج ! أؤمّيء إليّ بيدك ، لحظة تُريد ، تجذني حاضراً .

فقال أبي :

— لقد لاقيتك في الوقت المناسب ... (وتناوله ورقة من ذات الخمس والعشرين) هذي سُلقة ، يا اصادور ... وبعد أن تقصّ القطط المطلوبة وتحبسها في إصطبل تنال حقك كاملاً .

ولما كان الأخ اصادور قالايجيان يُعاني من البطالة منذ حين وقد تراكمت عليه الديون فقد جاءه عَرَضُ أبي ، المقرون بالليرات

الخمس والعشرين ، مُنْقِذاً له من وضعه التَّعيس ، ومُفضياً به إلى درب
السَّعادة ... قال :

— آيَشُر ، يا معلِّم ! أُمِهِّلْني أسبوعاً واحداً ، فأَتَصَيِّدُ لك القِطط .
أَعِدُّكَ صادقاً .



بعد أَيَّامٍ سِتَّةَ ، ظَهَرَ اصْبادور في فناء فندقنا ، وهو يصيح :
— القِطط جاهزة ، يا معلِّم ! خَبِّرِ التَّاجر ليأتي ويتسلَّم ماله حالاً ،
فالأمر لا يَحْتَمِلُ التَّأخير . بدأت الحيواناتُ تُثَوِّر ، وهي تَتَرَبَّصُ بعضُها
ببعض ، تُريدُ كُلُّ واحدةٍ أَنْ تُنْقَضَ على الأُخرى ، حتى بات من
المستحيل عليّ دُخول الإِصطبل لإطعامها !!

قال أبي ، وهو الذي يعرف في اصْبادور وَلَعَهُ منذ الصَّبَر بتعذيب
الحيوانات :

— بوركتُ جُهودُك ! كم قِطَّةً قَنَصْتَ ! منذ مدَّةٍ وأنا أَفتقدُ مُواءَ
قِطَّتينا ، فَحَزَرْتُ أَنْ قَبَضْتَكَ الحَديدِيَّة قد وصلت إلينا !

أجاب اصْبادور :

— العدد الذي طلبتِ وأَكثَر ، يا معلِّم !

فأجاب أبي :

— ولكنَّ يُوسُفَني أَنْ أبلغَكَ ، يا اصْبادور ، أَنِّي تَلَقَّيْتُ ، أَمَسَ ،
من التَّاجر ، رسالةً يعتذر فيها عن شراء القِطط ، ويقول إِنَّ سُوْقَهَا بات
كاسداً بسبب آندلاع الحرب العالميَّة ... وينصح بإِطلاق سَراح ما
أَقْتَنَصْنَاه من قِطط .!!

كاهن قريتنا

كان في بلدتنا كاهنٌ يُدعى « هوانيس تونتيان ». وكان رجلاً قوياً
جَهْوَريَّ الصوت ، رائعاً ومحبوباً من الجميع لطيب نفسه وحُسن خُلُقهِ
وخُلُقهِ .

ومع أنَّ أبي كان ينتمي ، بمذهبه ، إلى الطائفة البروتستانتية ،
وينتمي الكاهن إلى الطائفة الأرثوذكسية ، فإنَّ أبي كان مُعجَباً ، بل
مُتعلقاً به ، إلى درجة أنَّه كان يتردّد ، بين الحين والحين ، على كنيسة
الأرثوذكس ، كي يستمع إلى وعظ هذا الكاهن ويستمتع بالإصغاء إلى
ترتيبه العذب النقي .

ومّا أذكره أنَّ الكاهن لم يكن ييخُل علينا بزياراته ، فكان يدخل
بيتنا ويتصرّف بيننا كما لو أنّه في بيته ، فيأكل ، ويشرب ، ويُنشد . وأذكر
أبي رأيت أبي ، يوماً – والكاهن يُنشد أغنية « اللقلق » للموسيقار
« كوميداس » هذا المرح جداً – يكي !

وكثيراً ما رأيت هذا الكاهن يخلع مُسُوْحَه السُّود ويرميها جانباً ،
مُشاركاً النَّاس حياتهم اليوميَّة ، ومُشاطِرهم أفراحهم وأتراحهم ... بقدر
ما كان مُحبّاً للهِزاح والضُّحك العريض ، فكان - وهو في زيارتنا -
يتنافس مع أبي في سَرْد النُّكات والحكايات المُسلِّية .

ذات يوم قال أبي يسأله :

— يا محترم ! إني لأراك ، وأنت تتلو قُدَّاسَكَ على مَيِّت ، تبدو
حزيناً حُزناً يفوق حُزنَ أهله ، فكأنَّه منك وقد فارقك ! وأراك ، وأنت
تُبارك لِعُرُوسَيْن ، تفرح لهما أكثر من فرح أهليهما بهما ، فتزيد من تَعَلُّق
كلِّ من العُرُوسَيْن بالآخر وشَعْفَه به ! فهل تفعل هذا عن صدق ... أم
ماذا ؟

فأجاب الكاهن :

— يا جورج ! إذا لم يشعر الكاهن بِمَسَرَّة الفرحانين ويألم لألم
المحزونين ، فأَيُّ كاهنٍ هو ؟
وأطلق ضحكةً عريضةً ، ومضى إلى شأنه .

موايسيس محشيكيان

في شتاءٍ بعيد ، أندلقت مياهُ السماء كُلِّها على « جبل الأقرع »
 الرّايض فوق بلدتنا ، وجَرَتْ سيولٌ هوجاء لم تكتفِ بما حملته معها من
 التُّربة الحمراء ، بل جرفت في طريقها صُخوراً ضخمةً هَدَدَتْنا بالذَّمار ،
 وسدَّتْ منافذ الوادي العظيم . وأرتفعت ، في ذلك ، المياهُ حتى غمرت
 الجسر الذي يربط بين جانبي البلدة ، وأقنحت الحوانيت وجرفت ما فيها
 وألقته بعيداً حيث لا يعرف أحد . وكان هدير السيول يبعث الرُّعب في
 النفوس ، حتى أضطُرَّ ساكنو البيوت على جانبي مجرى السَّيل إلى الجلاء
 عن دُورهم والنَّجاة بأنفسهم إلى الأعالي خوفاً من أنهار البيوت على
 رؤوسهم أو من أنجرافهم هم مع مياه السيول المتدفقة .

أجل ، جرت السيول هكذا بمياهها الحمراء . وأنقسمت البلدة إلى
 شطرين ، لا يستطيع ، أو لا يجرؤ ، مَنْ في هذا الشَّطر على الانتقال إلى
 الشَّطر الآخر . وتعاطف الناس مع الضَّحايا ، ففتحت بيوت الآمنين
 لإيواء الذين تشردوا ، ولم يخلوا عليهم بما عندهم لمواساتهم .

ومن حُسن الحظّ أنّ هذه المحنة لم تُطل . فقد أُنقِطع ، في صباح اليوم التالي ، وابلُ المطر ، وغاضبت السُّيول ، وأبحسرت المياه عن الجسر ، وعاد النَّاس إلى أعمالهم .

كان أصحاب الحوانيت أكثر النَّاس تضرُّراً بهذا السَّيل المفاجئ ، وعلى رأسهم السيّد « موسيس محشيكيان » بائعُ الأقمشة ، الذي يقع حانوته عند رأس الجسر الأعلى ، فقد جرف السَّيل مُحتويات حانوته كلّها ! ولكنَّ الأمر كان مُختلفاً عند السيّد موسيس ، ذلك أنّ السَّيل لم يكتفِ بأن جرف ما في الحانوت من الأقمشة ، بل أخذ معه الدفاتر وقد سُجِّلَتْ فيها الدُّيون على أهل القرية لما كانوا قد آبتاعوه منه من الأقمشة بالذَّين قبل السَّيل ، ففَقَدَ بذلك مُستنداته عليهم !

لم تقفِ أضرارُ في الأرواح ، وتقبَّل النَّاس أضرارهم في الأموال برضى وتسلُّم ، إلا موسيس محشيكيان ، الذي فقد صوابه ، وراح يُكلِّم نفسه شاكياً حظَّه العائر الذي جعل السَّيل يجرف دفاتر الدُّيون ، فكانت خسارته بذلك مُزدوجة !

ولكنَّ من ذا الذي يهتمُّ بما خسرهُ السيّد موسيس ، أو السيّد واهان ، أو السيّد وارطان ؟ ... بلاءٌ عامٌّ ، غَضَبٌ من السَّماء ، نزل ، ومضى .

كان السيّد موسيس إنجيلياً ، وكان عُضواً في مجلس الكنيسة ، مثله مثلُ أبي ، الذي كان أبوه - جدِّي - تاجراً في ما مضى من أيَّام . وكان السيّد موسيس يعرف ذلك ، فجاء إلى أبي ، وتابَّط ذراعه ، وقال يُحدِّثه في جدِّ ، وهو لا يعرف المزاح :

— سيّد جورج ! أنت تعرف مدى الخسارة التي لحقت بي من هذا

السَّيْل . ولكن الأنكى أن السَّيْل جرف دفاتر دُيوني المُستحيقة لي على النَّاس ، فليس يُمكنني بعدُ تحصيلُها ! (وسدّد نظره إلى وجه أبي) لقد فقدتُ كلَّ شيء . ولا أعرف ماذا أفعل . وجئتُك الآنَ آملاً أن تُدُلّني على طريقةٍ أُستردُّ بها دُيوني على النَّاس ، ولا أشكّ في أنَّك واجدٌ لي حلاً ، فقد كان أبوك تاجراً مرموقاً ، وإنَّ عندك خيرةً في هذه الأمور .

لم يُعزِزْ أبي كبيرَ اهتمامٍ لأقوال السيّد موسيس ، وأراد التخلّصَ منه . لكن السيّد موسيس كان مُتمسكاً به ولا يُريد إفلاته . وتراءى له أن يعرض على أبي - وكان هذا أقصى ما يستطيع التنازل عنه ! - أن يمنحه عشرة بالمئة من مجموع ما يُحصّل من دُيونه المضّيعة !

ولمّا لم يجد أبي مفرّاً من أن يُبدّي رأياً ، قال :

— أسمع ، يا سيّد موسيس ! أنا لا أجد مُسوِّغاً لكلّ هذا الحزن الذي تحمله في صدرك . أنت ، حقاً ، فقدت بضاعتك ودفاترك . ولكنك كنت تبيع النَّاس بضاعةً بأضعاف ثمنها ، لأنهم يأخذونها بالدين . وسوف تأتي غداً ببضاعة جديدة ، تبيعها لهم ، بالدين أيضاً ، وبأضعاف مُضاعفة ... وهكذا تقتطع من رِقاب النَّاس كلَّ ما جرفه السَّيْل من بضاعة ومن دفاتر دُيون ، فلم تبكي وتحزن !؟

وآرتاح السيّد موسيس لهذا القول ، وقبّل أبي من جبينه عرفاناً بالجميل ... ومضى ، وقد اعتزم أن يسليخ جُلود أهل القرية كلّهم !

موسيس محشيكيان أيضاً

ذات صباح ذاع ، في أنحاء البلدة ، أن أشجار التفاح في بُستان السيّد موسيس محشيكيان قد كُسِر بعضها بفأس ... الفاعل مجهول ، لكنّ آثار أقدامه بدت واضحة في مواضع رطبة من الأرض .

على أثر ذلك أصيب السيّد موسيس بنوبة قلبية خفيفة ، سرعان ما أبُلّ منها وزايله الخطر ! وأتاه المداهونون يُسرون عنه ، فقالوا إنّ مُصيبته بسيطة لأنّ الأشجار المقطوعة فتية ، ولسوف تستأنف نُموها قريباً وتعود إلى سابق عطائها .

لكنّ السيّد موسيس محشيكيان ، لا يسكت على صَبَم . فذهب مع أنصاره إلى الشرطة وقَدّم شكوى ... ثمّ إنّ التحقيقات تَوَسَّعت ، أملاً في التعرّف على الفاعلين ، حتى وصلت القضية إلى دمشق ، مقرونة بالتماس من السيّد موسيس أن يُؤتَى بكلاب بوليسية مع مُروّضيها للكشف عن الفاعل .

وقد استُجيب لهذا الالتماس .

فبينما كنت أتمشّي مع بعض الرفاق قريباً من بستان السيّد موسىس ،
رأينا أمام المدخل سيارة ، ولحنا في داخلها شبحاً أو شبحين يتحرّكان ،
ثمّ أذهشنا أنّ رأينا كليين من الكلاب البوليسية ، أسود اللون وبنيّاً .
وتجمّع الناس هناك ، من الفضّوليين أمثالنا ، حتى زاد عددنا على المئة من
شبانٍ وفتيانٍ وشيوخٍ ونساءٍ وأطفال ...

وظهر رجلٌ غريبٌ آتقاد الكليين ، ومشى إلى جوار رجال الشرطة
ومعهم السيّد موسىس محشيكيان وعددٌ من أنصاره . وارتفع صوتُ
شرطيٍّ يأمر الحاضرين بالدخول إلى البستان ، فمشينا إلى حيث الأشجارُ
المقطوعة ... ولبثنا ننتظر فصول « التمثيلية » بفارغ الصبر .

أخذ رجال الشرطة ، يختارون من بين الناس - بناء على بلاغ السيّد
موسيس - أشخاصاً ، يعزّلونهم جانباً ويُجبرونهم بغلظةٍ على القعود على
الأرض ... باعتبارهم مُشتبهاً بهم !

وإذا ما استعرضنا أسماء هؤلاء المُشتبه بهم ، رأينا أنّهم من خيار
الناس وأبعدهم عن الشبهة ، وهم :

* كيروبيك : متوسّط العمر ، ماهر في استعمال الفأس ، لكنه
طيّب وشريف .

* نفلدون : مثقف غارق في الكتب ، جازّ لموسيس وقريبٌ له ، وهما
على خلافٍ قديمٍ مُستحكِم ،

* الحلاق باركيف : ربّما أُدرج اسمه بين المُشتبه بهم لمهارته في
الحلاقة !

* جانو الاسكوراني : اشتبه به لما عُرف عنه من هواية التّجول في

الليل حتى ساعة متأخرة ، أو لأنه يكسر نصال المعاول ، أو لأنه قام
بأقتلاع أشجار التفاح البرية في بستانه ، من يدري ؟
* نرسو : شاب هزيل الجسم ، ويبدو أنه أشتبّه به لمهارته في تقليم
الأشجار !

* الفاكهاني موسى : لأنه لم يرض أن يبيع محشيكيان تما عنده من
تفاح جبجيجان !

* آغة الصخرة : آتهمه موسيس محشيكيان ، كي يُثبت للناس أن
في أستطاعته أن يُرْكع حتى الأعوات !!

بدأ الكلبان ، يقودهما مُروّضهما ، بالهمهمة والقفز هنا وهناك ،
يتشتمّان رائحة الأرض المعشبة ، وبقايا الأشجار المقطوعة ، وكانت
كثيرة أشبهت المحتضر الذي يلفظ آخر أنفاسه ! والسيد موسيس يُتابع
وأنصاره حركات الكلبين بمزيد من الاهتمام ، في هذه التمثيلية المضحكة
التي تُصدّر الكلبان بطولتها .

آرتفع صوت من المتفرّجين :

— إنّ ما تفعلونه ، أيّها السادة ، غير قانوني ! أطلقوا كلابكم
لتبحث عن الفاعل في كَسْب كلّها ، ولا تحضروا الشبهة في هؤلاء
السبعة الأبرياء !

كان المعارض هو سركيس بولاديان . ولكن من ثراه يُصغي إليه ؟
لقد ذهبّت صرخته بدداً .

وأخيراً جاء المروّض المتباهي بأحد كلبيه ، الأسود ، وقربه من الذين
أجبروا على أن يقتعدوا الأرض بأستكانة ، وجعله يتشتمّ كلّ واحدٍ
منهم . ثم أطلقه ليشمّ العشب . وبعدئذ أعاده إلى المشتبه بهم ، فمرّ

عليهم ، وأخذ يشدُّ أثواب بعضهم ، فكانوا ثلاثة هم : كيروب ،
ونفدون ، وجانو .

أمسك المروض بكبله ، وقد ثبتت التهمة على هؤلاء الثلاثة . ونُقِل
الخبر إلى السيد موسى وأنصاره ، فأقبلوا عليهم يرشقونهم بنظراتٍ
مُتَشَفِّيةٍ وهم في هذه الحالة من الذلِّ والمهانة .

وتفرَّق الجمهور . واعتُبرت القضية مُنتهية . ولكنَّ أحداً لم يقتنع
بأنَّ أيّاً من هؤلاء الثلاثة يُمكن أن يقترب هذه الجريمة . وعَجِبَ النَّاسُ
أنَّ يترك مصيرُ بني البشر بين أنياب حيواناتٍ حمقاء .



ومرَّت الأيام . وتبعثرت القضية – التي اعتُبرت يوماً ما قضيةً ! – فلم
تُثبت التهمة على أحدٍ من المُتهمين الذين أُخْلِجَ سبيلهم . والأشجار لم ترجع
إلى سابق عهدها ... ما بقي هو العُزلة التي فرضها السيد موسى على نفسه ،
وبُغضُ النَّاسِ له الذي استحقَّه على فعلته .

ويعود السيد موسى محشيكين إلى أبي لاستشارته كرهةٍ أخرى ، يقول :
سيد جورج ! لو كنتَ مكاني ماذا كان في وسعك أن تفعل ؟

فيردُّ أبي : سيد موسى ! منذ الأزل والنَّاس يتركبون أخطاء دون
تفكير ! أنتَ فعلتَ ما فعلت ، فبذرتَ البغضاء في قلوب معارفك ، ولقنتهم
الرَّغبة في الانتقام ! إني لأعرف أنَّ ما وقع كان مُفتعلاً لا أساس له ، كما أعلم
أنَّ الكلاب تشمُّ رائحة الدَّم لا رائحة العُشب !

وراح موسى يعتذر : أمر وحصل !

وأبي يقول : لو كنتَ أطعمتَ كلباً في بستانك ، بدلاً من أن تأتي
بذئبتك الكليلين ، لما كان ما كان !!

بابيك ذو العين الصيابة!

I

كان يقطن ، في حينا ، جازّ يُدعى « سيروب مكرديجيان » ، ثلقبه بـ « بابيك » ، هو مُختار الطائفة البروتستانتية في كَسب ، والأخ الروحي لأهل البلدة ، الذي يهتم بأفراحهم وأتراحهم . وكان رجلاً طيّاً ، ونشيطاً ينهض إلى عمله في الصّباح قبل شروق الشّمس ، مُولعاً بالأدب ، يتابع أخبار البطولات والتّضحيات بلدّة فائقة ، ويهتم إلى حدّ كبير بالماضي وحاضر شعبه الأزمني .

وكان يتمتّع ، بعد ذلك كلّهُ ، بموهبة فطريّة لا يدّ له فيها : كانت ، في عينيه الزّرقاوين ، قوّة جاذبة خارجة عن إرادته ، تجذب كلّ من حوله من ضِعاف أو عُتاة ، كما تجذب الحيوانات ، والنباتات أيضاً !

II

في صباح يومٍ من أيّام الأحد ، كانت زوجته الشّابة تُصليح من شأنها أمام المرآة استعداداً للذهاب وإيّاه إلى الكنيسة ، وقد أضفت الرّينة

عليها تضارةً وجمالاً . في تلك اللحظة عاد زوجها من الإصطبل بعد أن فرغ من العناية بحيواناته ، فما كان منه إلا أن أبدى إعجابه بجمالها ، وأخذ يتغزل بها ويُسرف في غزله ... ولكن قبل أن يُكْمِل كلامه ، كانت الدنيا تدور في عينها ، وترتمي على السرير مَغْشِيّاً عليها !

ومن حُسن الحظّ أنّ باييك كان يحتفظ بدواء ناجع لمثل هذه الحالات ، قد آتخصّته به العناية الإلهية دون خلق الله أجمعين : هو أنّ يقطع فلذة من جِزّامه الجلديّ ، ويحرقه ، ويُسخر به المريض ، ناشراً سُحْب الدُخان الأسود حوله ، وهو يتلو بعض التعاويذ ... حتى يَيْلّ المصاب تماماً هو فيه !

وهذا عَيْنُ ما فعله سيروب مع زوجته .

وبعد يومين عُوفيت ، ونهضتْ تُدبّ على قدميها ، مُعترفةً بِفَضْلِ زوجها ، وقد آزداد تقديرها له .

III

ومن بركاته أيضاً ، أنه كان ، يوماً ، يتجاذب أطراف الحديث مع بعض أصحابه في فناء النادي ، فلمح عَجْلاً في قِمّة الجبل ، فقطع حديثه قائلاً :

— يا شباب ! هل تُريدون أن تأكلوا اليومَ شِواءَ وفيرا ؟

أجاب « الحاجي بيدروس دمبرجيان » :

— ومن ذا الذي يرفضه إذا صَحَّ له !

وأضاف « ميشيل القاراداشي » :

— ومَنِّي التَّيِّدُ الْمُعْتَقُ !

أَمَّا أَبِي فَقَالَ :

— بِمَاذَا تُفَكِّرُ ، يَا بَابِيكَ ؟ أَتُرِيدُ أَنْ تَحْرُبَ بَيْتَ أَحَدٍ فِي هَذَا الصَّبَاحِ ؟

فَأَجَابَ بَابِيكَ :

— أَبَدًا ! وَلَكِنَّهَا هِبَةٌ مِنَ الْجَبَلِ ، وَبِقُدْرَةِ اللَّهِ الْعَلِيَّةِ . فَلْتَنْصُدِ الْمَوَاتِدَ ، وَلْيُعْمِ الْفَرْحُ !

ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ الْيُسْرَى عَلَى جَبْهَتِهِ ، وَصَوَّبَ نَظْرَهُ عَمِيقَةً إِلَى الْعَجَلِ ، الَّذِي يَرَعَى عَلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ .

ثُمَّ بَدَأَ وَكَانَ سَهْمًا ، أَوْ رِصَاصَةً أَخْتَرَقَتْ الْعَجَلَ ، فَإِذَا الْمُسْكِينُ يَتَدَحْرَجُ مِنَ الْقِمَّةِ إِلَى الْوَادِي ، وَيَلْفُظُ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ .

IV

« مَآثِرُهُ » كَثِيرَةٌ لَا حَظَرَ لَهَا .

أَذْكَرَ جَيِّدًا أَنَّهُ كَانَتْ ، فِي فِنَاءِ فَنْدَقِنَا ، شَجَرَةٌ إِجْاصِرُ مُزْهِرَةٌ فِي ذَلِكَ الرَّيِّعِ . وَكَانَ بَابِيكَ يَتَرَدَّدُ عَلَيْنَا لِيُزَوِّرَ أَبِي الَّذِي كَانَ مِنْ أَعَزِّ أَصْدِقَائِهِ . فَبَجَاءَنَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ يَهْزُ سِرْوَالَهُ الْأَسْوَدَ عَاقِدًا يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ . كَانَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ يُحِبُّونَهُ ، بِقَدْرِ مَا يَتَشَاءَمُونَ مِنْ « مَآثِرِهِ » ، وَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ فِي دَاخِلِهِ قُوَّةَ خَفِيَّةٍ ، هَدَامَةٍ ، لَيْسَ يُدْرِكُهَا إِنْسَانٌ !

وَأَذْكَرَ أَنِّي ، لِحُلْظَةٍ لِحَتَّتِهِ قَادِمًا ، آتِنَانِي الْخَوْفَ ، وَعَدَوْتُ إِلَى الدَّاخِلِ أَتَشَاغِلُ بِتَرْتِيبِ حَقِيقَةِ الْمَدْرَسَةِ . فَتَرَامِي إِلَى صَوْتِهِ يُرَدِّدُ :

— ما شاء الله ! ما شاء الله !

أُظِلَّتْ من النَّافذة .

رَأَيْتُ أَبِي وَأُمِّي ومعهما بابيك ، يترشّفون القهوة تحت شجرة
الإجاص . راح قلبي الطُّفُولِيّ يَخْفِقُ بِشِدَّةٍ . أَصَحْتُ ، فسمعتُ بابيك
يقول ، واصفاً الشَّجرة وقد آرَست على وجهه أمارات الأندهاش :

— حقًّا ، إِنَّ إِجَاصَتَكُمْ كالعروس المجلّوة ، تستحقّ أن يُثْنَى عليها
وأن تُحَبَّ !

ومع أن أهلي يعلمون علمَ اليقين ما لجاننا من عين « صَيَّابَةٍ » ،
فإنهم لم يهتموا بقوله ، وبَدَّوْا كأنهم لم يسمعوا ، لا ولا طالبوه بفِلْذَةٍ
يقتطعها من حزامه ليحرقوها في ظلّ الشَّجرة حالاً !

وحلّت المُصِيبَةُ !

ففي صباح اليوم التالي ، كانت إِجَاصَتنا ، العروس المجلّوة ، قد
ذُبِلَتْ ، وهي تجتَرُّ أشعَّةَ شمس الصُّباح الوانِيَةِ . وأدركها اليبَّاس ، بعد
يومينِ إثْنين ، فأشْبَهَتْ عروساً مخدوعةً أثرت أن تتجرَّع السَّمَّ وتموت .

وعَمَّ الحزن بيتنا . فجلستُ أُختي الكبرى تحت الشَّجرة اليابسة
تُبكِيها مُخرقةً ، ولم أَمَّاك نفسي ، فَحَدَّثْتُ حَدَّثَهَا . وجاءتنا أُمِّي ،
تتلفّت حوالها ، وتندّب الشَّجرة :

— آه ، يا شجرتي الوحيدة العزيرة !

وترفع يديها ، وكأنها تُتَوَسَّلُ إلى الله أن يُحييها بمعجزةٍ من عنده .
وأمسكتُ بيدينا أنا وأختي ، نُحاول تهدئتنا :

— آهَدُوا ، يا أولادي ! سيفرس أبوكم شجرةً بدلاً منها .

فصرختُ من ألمٍ عبر دموعي المنهمرة :

— ولكن لماذا لم تُبَحِّروا الشَّجرة فوراً ، يا أمِّي !؟

وأما بابيك ، فقد كان يسير في دُروب القرية مُطأطأً رأسه خجلاً !

V

في يومٍ آخر ، نسي بابيك نفسه ، فالتحني على طفلٍ — في بيتٍ يزوره — وقبله .

وبعد عودته إلى بيته فطِنَ إلى ما فعل ، فاقطع فلذة من حزامه ، وبعث بها إلى أهل الطِّفل ليُستَخروه ، فاستقبلوها كالخبز الساخن .

ونجا الصَّبِيُّ من موتٍ مُحَقَّقٍ !

VI

ذات يوم ، كان « جيمس الكوركوني » يمتطي حصانه المَطَّهَمَ ، قادماً إلى كَسَبٍ لشراء بعض حاجاته . وأضطُرَّ في طريقه إلى المرور ببيت بابيك . وخوفاً من مُصِيبَةٍ تَحِلُّ به أشاح بوجهه عن باب البيت .

ولكنْ أُنِّيْ لِلذُّبَابَةِ أَنْ تهرب من عَيْنِي بابيك ؟

لقد برز له هُذَا ، رافعاً ذيل سرواله ، وقاطعاً عليه طريقه ، وهو يقول :

— السَّلَامُ لله ، يا جيمس ! إلى أين يُمكنك أن تطير !؟

ولم تمضِ دقائقُ خمس ، حتى كان الحصان – وعلى ظهره جيمس –
يتدحرج على طريقٍ وعرة !

VII

كان مُختارنا باييك إنجيليًا حمياً ومُولعاً بالكنائس .
وكان من حُسن حظِّ القساوسة والواعظين أنَّ أحداً منهم لم يَحْظَ
بنظرة استحسانٍ منه ، ذلك أنَّ رُعاة الكنيسة لم ينجحوا – وهم يُقدِّمون
مواعظهم – في أن يستلفتوا إليهم نظرةً واحدةً من عيني باييك الجميلتين !

VIII

وقد قُدِّر للبائع المتجَوِّل « غازار » أن يقترض يوماً من باييك خمسين
ليرة ، على أن يردها إليه بعد شهرٍ من الزَّمان .
ثمَّ إنه مضى شهرٌ ، وشهرٌ آخر ، وغازار لم يعد من سفرته ما بين
كَسْب و « جسر الشُّغور »
ولكنَّ غازار لا يُمكنه أن يَفِلَّ من يَدَي باييك .
لقد علم ، في مؤهِن من الليل ، أنَّ غازار قد عاد إلى كَسْب .
فتوجَّه ، في تلك السَّاعة المتأخِّرة ، إلى بيته ، عاقداً يديه خلف ظهره ،
صارفاً بأسنانه ، وقرع عليه بابه قرعاً شديداً .
ويستقبل غازار المتعب ، الذي لَمَّا يَنْقُضْ عنه وَعْثاء السَّفر بعد ،

سيروب مكرديجيان ، هاشاً باشاً . وأخذ يشكو له الخسارة التي مُنّي بها
في هذا الأسبوع الأخير وحده .

فقال بابيك مُقرّعاً :

— غازار ! أنا لم آت إليك لأستمع إلى قصصك ودواوينك ! ثمّ إني
لا أفهم في التجارة ، ولتُنسَلِ بذهنك وتُنقَلِ ! سَدِّدْ لي حسابي ،
ودعني أذهب !

قال غازار :

— أمهاني مدّة ، يا أخ بابيك . نحن أهل . لسوف أرتّب أموري
وأدفع لك .

ألح بابيك :

— لن يحصل شيء من هذا قطّ . أنت تعرف جيداً أننا في أيام
عيد . لن أغادر المكان حتى آخذ حقّي .

قال غازار وهو يَصْطَنعُ سَعْلَةً جافّة :

— ليس عندي ما أعطيك إياه ، يا صديقي !

فتَوَعَّده بابيك :

— طيّب ! لسوف تجد غداً بخلك ، بابَ رزقك ، نافقاً ، وتدفعه
بيديك !

ما إن سمع البائع المتجول ذلك ، حتى قفز من مكانه ، وترك
سيروب مكرديجيان حيث هو ، وأندفع إلى خارج البيت .

ووصل إلى « هوانيس نرسيسيان » . وأخذ يشرح له الأمر الفظيع .
 وإذا سمع هوانيس نرسيسيان من غازار حكايته ، وأدرك مدى خوفه
 على بغله ، آبتسم ... ولم يعد في استطاعته أن يردّ طلبه ، فناوله الخمسين
 الليرة ، وهو يقول :
 — إنني أعرف قيمة بغلك عندك ، يا غازار . أتمنى لك التوفيق من
 أعماق قلبي .

IX

وذات يوم ، كان سيروب مكرديجيان يسير في القرية في طريق
 وعرة . فصادف امرأةً حُبلى يعرفها . فرَشَقَهَا ، من طرف عينيه ،
 بنظرة شهوة سال ، لجسمها المنتفخ ، لعابته ... ثم تابع طريقه صامتاً .
 وما كادت المرأة ، السيّمة الحظّ ، تبلغ نهاية الطريق ، حتى فاجأها
 المخاض شديداً ، ووقعت على الأرض تطلب العون .
 ههنا تحرّكت ، في صدر باييك ، إنسانيته ، فسارع إلى الجوار
 يشرح لهم ما ألمّ بالمرأة ، فهرّعوا إلى إسعافها ، وحملوها إلى أقرب بيت ،
 حيث ولدت ولادةً مُتعسّرة لم تُنج منها إلا برحمة الله .

X

ما زلت ، حتى اليوم ، في حيرة من هذه القوّة الهدّامة التي يتّصف
 بها ذوو العيون الزرق على الأغلب ، ولم أتوصّل بعد إلى تفسير لها ، وإن
 كنت أعتقد أنّها عطيةٌ من الله ، ربّما ليتقم بها من عباده الضالين !

وَأَتَى لِأَجْزَم ، الْآن ، بَأَنَّ أَبِي كَانَ يُدَارِي هَذَا الـ « بَابِيك » دَفْعاً
لِأَذَاه . وَلِأَعْتَرَفَ ، هُنَا ، بَأَنَّ لِسَانَ أَبِي لَمْ يَكُن بِأَقْلَ أَذَى مِنْ
عَيْنِ سَيُورِب مَكْرَدِيْبِيَان !

فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ اتَّفَقَ الْإِثْنَانُ - أَبِي وَسَيُورِب - عَلَى أَنْ يَتَوَجَّهَا إِلَى
قَرْيَةِ لِلْتُرْكَانَ ، قَرْيَةٍ ؛ كَانَتْ لِأَرْمَنِ - يُقِيمُ فِي أَمْرِيكَ - أَرْضٌ فِيهَا ، قَصْدُ
الْأَسْتَفْسَارِ عَنْ سِيرِ الْعَمَلِ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ . وَقَدْ دَخَلَ الرَّجُلَانِ الْقَرْيَةَ ،
عَلَى حِصَانَيْنِ ، وَهَمَا مُسْلِحَانِ ، فَبَدَّوَا مِثْلَ الثَّوَارِ !

وَقَدْ سَبَقَهُمَا إِلَى النَّاسِ هُنَاكَ أَنْ إِثْنَيْنِ مِنَ الثَّوَارِ هَمَا فِي طَرِيقَهُمَا إِلَى
الْقَرْيَةِ ، فَارْسَيْنِ مُدْجَجَيْنِ بِالسَّلَاحِ !

كَانَ مُلَّاكٌ مَعْظَمُ بَسَاتِينِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ مِنْ « الْأَغَوَاتِ » الْأَرْمَنِ ، عَلَى
حِينَ كَانَ الْعَامِلُونَ فِيهَا مِنَ الْفَلَاحِينَ التُّرْكَانِ . وَأَمَّا الْأَغَوَاتُ الْآخَرُونَ ،
فَكَانُوا يَتَلَبَّثُونَ الْعَامَ كُلَّهُ دُونَمَا عَمَلٍ ، أَنْتَظَاراً لِمَوْسَمِ الْحِصَادِ الَّذِي يَتَلَقَّوْنَ
وَارِدَهُ وَهُمْ يَنْعَمُونَ بِالرَّاحَةِ وَالْكَسَلِ .

عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ وَصَلَ بَابِيكُ وَأَبِي إِلَى الْقَرْيَةِ . وَتَوَجَّهَا إِلَى الْمَزْرَعَةِ
الَّتِي يَمْلِكُهَا الْأَرْمَنِيُّ الْأَمْرِيكِيُّ . وَخَرَجَ لِأَسْتِقْبَالِهِمَا فَلَاحٌ تُرْكَائِيٌّ مِنْ
مَعَارِفِ بَابِيكِ ، يُدْعَى « حَسَنُ » ، بِصِفَتِهِ وَاحِداً مِنْ أُسْرَةِ الْعَامِلِينَ فِي
هَذِهِ الْقَرْيَةِ .

نَزَلَ بَابِيكُ عَنْ حِصَانِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ لِلْفَلَاحِ الطَّيِّبِ :

— شُكْراً لِلَّهِ لِأَنِّي أَرَاكَ فِي صَحَّةٍ جَيِّدَةٍ . أَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ يَطْرَحَ
الْبَرَكَةَ فِي الْحَقُولِ وَالْبَسَاتِينِ وَالْكُرُومِ وَالْحُضَارِ ، وَأَنْ تَكُونَ أَنْتَ وَالْمَزْرَعَةُ
فِي أَلْفِ خَيْرٍ .

أجابه الرَّجل ، بعد المُصافحة :

— لا تشغلْ بالك ، آغا سيرو ! نحن نقوم بواجبنا في العناية بالمزرعة على أحسن ما يرام ، في الليل وفي النهار . أنتم غير موجودين معنا ، لكنَّ عين الله ترقُبنا . المحصول جيّد ، على ما يبدو ، في هذا العام .

قال باييك :

— الله يعطيك العافية ، يا ولدي يا حسن .

ثم تلّفت حوائله ، راسماً في خياله حُدود المزرعة الشّاسعة ، المُسلّمة إليه مَقَالِيدُهَا ، مُتَمَلِّياً منها النّظر بعينيه الزّرقاوين ، ثمّ توجّه بخطابه إلى الفلاح :

— أودُّ أن أقضي الليلة في المزرعة .

ولمّا كان أبي حديثَ عهدٍ بهؤلاء القوم ، فقد ترك الأمر لباييك ، ولم يعترضْ على اقتراحه .

أجاب حسن باسمًا :

— وجودكم بيننا فرحة كبيرة تبعث فينا السرور . ستستمتع بأحاديثكم ونستفيد من تجاربكم في الحياة ، ونهتدي بتوجيهاتكم .

ثمّ قام لإعداد التّرتيبات اللازمة لإيواء الفَرَسَيْن في الإصطبل وتقديم العلف لهما ، وتهيئة غرفةٍ مريحةٍ لينام فيها أبي والعمُّ باييك .

في صباح اليوم الثّالي استيقظ باييك مع الفجر ، حسب عادته التي لا تتغيّر . ونزل وحده إلى البساتين القريبة يتفقّدها . ولمّا كان يُحبّ

الخيار حُبًّا جَمًّا ، فقد طاب له أن يتملّئ النظر من مسكبة من مساكبه .
وقطف خيارة ، وجعل يُقشّرها ، ثم أكلها بتلذُّذ .

وبعدئذ سار لمعاينة كُرُوم العنب المُقابلة . ثم دار حول حُقُول القمح
الذهيَّة اللون ، وكأنَّه يُريد لها أن تستيقظ من النوم . وانتقل إلى حقل
الجَبَس (البطيخ الأحمر) ، وأخذ يتلمّس البطيخات واحدةً بعد
أخرى ... ليجد نفسه ، أخيراً ، في بساتين الإلجاص والتين والتوت ،
فأخذ بوفرة ثمارها ووارف ظلّالها .

وبعد أدائه هذه المَهْمَة اللازمة ، عاد إلى غرفته وهو يُحسّ راحةً ،
وأنضمَّ إلى أبي ، ونادى حسن ليقول له :

— أهنيك على جُهودك وعلى كبير عنايتك . واطبَّ على عملك
المنتج ، عافاك الله . إنّ الأرض في حاجة إلينا وإلى عرقنا . العرق غذاء
للأرض . الأرض لمن يعمل فيها ، وإنَّها لتُسعد القاعين على خِدْمَتها .

كان حسن يقف أمام بابيك مثل تلميذٍ مُجِدِّ مُطيع . وتلفظ لسانه
بكلماتٍ شكري ساذجة ، ومضى لإعداد طعام الفُطور والقهوة .

عند الظهيرة ، انتهت المَهْمَة ، في مُعاينة الأرض والبساتين ، وإعطاء
التوجيهات ، وتدقيق الحسابات . وأستعدَّ بابيك وأبي للعودة إلى كَسْب .
ولأنَّ بابيك لم يشبّع من الخيار ، فقد رغب في أن يأخذ منه عشرة كيلو
إلى كَسْب قُبيل أمّطائه صهوة جواده .

وذهب الفلاح بسلةٍ إلى حقل الخيار ، وعاد بها مملوءةً . فلما أخذ
يَزِن الخيار ، وحتى يكون الميزان مضبوطاً ، راح يبحث عن خيارة صغيرة
يُكمِل بها الوزن ، فلم يجدها ، فأخرج موساه ليُقسم الخيارة نصفين .

شعر باييك ، وهو ينظر إلى ما يفعل حسن ، وكأنّ سهماً يخرق قلبه . وهمّ بأن يقول شيئاً ، لولا بضْعُ كلماتٍ من أبي ، باللغة الأرمنية ، كَبَحَتْ جِماحَه ، وصَبَّرَتْه لحظات . فتمالك باييك نفسه ، ثم ما لبث أن قال وهو يرمق حسن بعينه الزرقاوين :

— وَيَحَكَ ، يا حسن ! العمى في عينيك ! ليأخذك الشيطان ! مَنْ رأى خِيارَةً تُقسم في الميزان ؟ لسوف ألغي كلَّ اتِّفاق بيني وبينك !

قال حسن ، وقد بدا عليه الاضطراب :

— لا ، يا سيرو ! في الدنيا عدل . أنا سَفَحْتُ عَرَقاً وبذلك جُهداً... وإني أخاف المواسم المُجْدِبَة !
— لِيَبْتَلِكَ اللهُ بالمواسم المُجْدِبَة ، يا حسن ، يا ظالم ! لتأكل الدَّيدانُ بطنك !

قال باييك ذلك وهو ينثر الشرّ من عينيه في أرجاء المزرعة كلّها .

ثمّ أطلق ، هو وأبي ، العنان لفرسيهما ، باتّجاه كَسَب .

في مساء اليوم التالي ، جاء حسن إلى كَسَب على حصانٍ أسود ، وتوجّه إلى حَيِّنا ، وطرق باب بيت جارنا باييك ، وهو في غاية الحزن .

وباييك حزر ما جاء من أجله حسن . لذلك أجلسه بجانبه ، وراح يُهَوِّن على الفلاح البخيل ، ويؤاسيه بعباراتٍ لطيفة .

وعرض حسن أمره ، قال :

— لقد مات حقل الخيار ، يا آغا ! والدُّخان الأسود يتصاعد من الكُروم ! أما القمح فيبكي ! إِنَّ الموت يُخَيِّم على المزرعة بأسرها .

أعلن بابيك :

— رُح ، يا حسن ! يشهد الله أن هذا جزاؤك هذا العام . أفعل
الخير تأتِكَ السَّعادة !

XI

ذات مساء شَتَوِيّ ، كان بابيك عائداً إلى البيت عندما بدأ مطرٌ
غزيرٌ ينهمر . ولما لم يكن يحمل المِظلة فقد اضْطُرَّ إلى الالتجاء إلى
« القهوة میناس » .

كان العمّ میناس ، القهوة میناس ، في تلك اللحظة يَضُمُّ إلى صدره
رَبابته ذات الأوتار الثلاثة ، يعزف ويغني إحدى الأغاني التُركية القديمة ،
وحطَبُ السُّنديات يَزِيزُ في المدفأة .

أقرب بابيك من المدفأة ، لِيَجْفِفَ سرواله المبلل . فرمقه القهوة میناس
بطرف عينه ، دون أن يتوقّف عن العزف والغناء ... بل إنه أخذ يُبالغ في
غناؤه الشعبيّ الحزين .

هتف بابيك ، وهو جالسٌ على الكرسيّ :

— يكفي ، يا أخ میناس (ويقرّب يديه الباردتين من المدفأة ، وهو
يَفْرُكُ إحداها بالأخرى) لماذا تتناسى أغاني كوميداس الخالدة
ومعزوفاته ، وتجري وراء الغناء التُركيّ ؟

فيُجيب میناس وهو يُخَفِّضُ طبقة العزف :

— أسمع ، أيها القرويّ ! لقد أقتبس الأتراك منا هذه النُعمة ! إنهم
أقتبسوا الألحان والكلمات من أغنياتٍ لنا كثيرة . فالأتراك مُعتادون على

ذلك . أخذوا وطننا وما يضمّه من الأراضي ! أسمع ، يا باييك ، إن كان
لك قلب ، وسوف تُجدّد بالسّماع نفسك !

فيؤكّد سيروب مكرديجيان :

— لا ، لا أصدّق . غناؤك تُركي ، لا وراء في ذلك ، يا ميناس .
كُفّ عنه !

لكنّ العمّ ميناس ، المنتشي بغنائه ، لا يُبالي بكلمات باييك
الأخيرة ، وكأنّه لم يسمعها .

وهناك ، في زاوية مُعتمّة ، يجلس « السّنيور » مُنسجماً ، أمام قدح
العرق وصحن سمك السّردين ... تُخال أنّه ينتظر الدّقّائق الأخيرة من
حياته .

وأما صانعُ السّلاح ، « الحاجي أرّتين » ، صديق القهواني الحميم
وزبونه الدّائم ، المُلطّخ الكفّين بالسّخام بِحكم عمله ، فكان جالساً على
كرسيّ ، واضعاً رجلاً على رجل ، غارقاً — كما يبدو — في ذكريات
الشّباب .

أنّصب باييك ، وصاح في غضب :

— يكفي ، أخ ميناس . بحسبك . ما تراه يقول الذي يسمعك ؟

لكنّ القهواني لا يُعيره أيّ ألففات ، مُتابعاً غناؤه التّركيّ الذي يبعث
على الحزن ويجلب الثّعاس .

المطر ييكي في الخارج ، والقهواني ييكي في الدّاخل .

فجأةً ، تنطلق من القهوائي ، من فمه المُستخفي تحت لحيته الكثة ،
في سياق الأغنية ، الكلمات التالية :

كنتَ بطلَ تلك الحروب الصّارية
سقطتَ على طريقِ أرضك الذهبية الملتبة
ويحمل مَلَكٌ من نورٍ روحك
فطوى ، وألف طوى ، لأمثالك !

وتزلّت هذه الكلمات المؤثرة ، كالنور في روح العمّ باييك إذ
تلقّطها سمعه ، وشعر بتبدّلٍ غريب . فأقرب من هذا الشيخ الفنان ،
يقول متأثراً :

— الحقّ معك ، يا عزيزي ! تابع .

ويأخذ العمّ ميناس من قدحه رشفةً . ومن عينيه ، السوداوين
كالفحم ، يُرسل نظرةً إلى عيني باييك الزرقاوين الصّافيتين حتى تبلغ
أعماقها ، ثم يتابع ، غناءً وعزفاً :

أنيّت لأنثر ورداً على قبرك
جاءت أمك لتثر الدّموع
فليبقَ اسمك على مدى الزّمان
لأنك قضيتَ فداءً لوطنك !

فيحتف باييك :

— حُييتَ ، يا أخ ميناس ! ما كنتُ أعرف أنّك تتمتع بهذه الحيويّة

كلها ! ولكنَّ يَحْسُنْ أَنْ تُغْنِي بِالْأَرْمَنَِّةِ أَحْيَاناً ، وَعِنْدُئذٍ تَعْلُو مَكَائِنُكَ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ .

وَيُجِيبُ الْقَهْوَانِي :

— يا صديقي ! الفنَّ لَا يَعْرِفُ أَبْداً التَّفَرُّقَةَ بَيْنَ الْعَدُوِّ وَالصَّدِيقِ .
علينا أَنْ نُقَابِلَ ، وَبِمَزِيدٍ مِنَ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ ، الْخَيْرَ بِالْخَيْرِ ، وَأَنْ نُقَابِلَ أَيْضاً
الشَّرَّ بِالْإِحْسَانِ وَالْتِسَامِ ، فَتَنْتَصِرْ عَلَيْهِ .

وَتَبَيَّنَ بَايِيكَ مَا فِي قَوْلِ مِينَاسَ مِنْ صَوَابٍ ، فَكَفَّ عَنْ مُجَادَلَتِهِ ،
وهو الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ يَحْمِلُ عَلَى كَتْفِهِ رَأْسَ فَنَانٍ وَوُطْنِيٍّ عِنْدَ ... وَاسْتَأْذَنَ
فِي الْإِنْصِرَافِ ، وَتَمَتَّى لَيْلَةً سَعِيدَةً لِلْجَمِيعِ ، وَغَادَرَ الْمَكَانَ إِلَى بَيْتِهِ .

ومرَّ زَمَنٌ ، بَعْدَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، لَمْ تُصَبِّ فِيهِ عَيْنَا بَايِيكَ أَحْداً بَشَرًا !

XII

لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَدُمْ طَوِيلًا .

فَقَدْ سَمِعَ أَنَّ « أَوْصَانًا » ، زَوْجَةَ « سَرْكِيْسَ بُولَادِيَانِ » ، تُعَرِّضُ بِهِ
فِي كُلِّ مَكَانٍ . فَتَصَدَّى لَهَا صَبَاحَ يَوْمٍ ، وَقَدْ جَاءَهَا يَهْرٌ سُرْوَالُهُ ، وَيَقُولُ :

— يَا جَارَتِي ! أَوَدَّ أَنْ أَعْرِفَ لِمَاذَا تُعَرِّضِينَ بِي أَيْنَمَا ذَهَبْتِ وَحَيْثُمَا
حَلَلْتِ ؟ !

فَتَبَرَّثَ الْمَرْأَةُ فِي وَجْهِهِ وَهِيَ تَرُشُّقُهُ بِنَظَرَةٍ مِنْ عَيْنَيْنِ كَعَيْنَيِ نَسْرِ :

— أَنْظُرِي إِلَيَّ ! بِحَسْبِكَ مَا تَجْلِبُهُ لِلنَّاسِ مِنْ مَصَائِبٍ ! لَقَدْ أَصْبَحْتَ
شُرُوكَ كَالْمَرُضِ ، مِثْلَ وَبَاءِ سَرَى فِي الْبَلَدَةِ ! لَتَكُنَّ فِي قَلْبِكَ ذَرَّةٌ مِنْ

الرَّحمة ، يا رجل ! تُعْطِي فَلْدَةً من حزامك لهذا ، وتمنعها عن ذاك ! قد يُقْبَل التَّمييز في أمورٍ أُخْرَى ، وأما في إعطائك هذه الفِلْدَات ، فلا ! ثم ... ما ثراه مصيرُ آبننا ؟ فَإِنَّ حاله تسوء منذ ثلاثة أَيَّام ، وهو يُلَازِم الفراش ، لا يأكل ولا يشرب !

فأجابه بابيك مُتغاضباً :

— أَوَّلُ بك أن تستدعي طبيباً يُعالج آبنك ، لا أن تعتبريني مسؤولاً عن كلِّ أذى يُحِلُّ بأهل البلدة ، يا أوصائنا !
فَزَعَفْتُ به المرأة :

— إِنْ في عينيك رماداً ، فضع على الأقلَّ نظارة سوداء تُخفِئهما ! لو كنتُ إِيَّاكَ ، لَفَقَّأْتُ عَيْنِي ، وآتَزَوَيْتُ في ركنٍ بعيداً عن النَّاس ! أَعْمَالك ما عادت تُطَاق . آتَى الله يا رجل !

فُجِيب بابيك بلهجة الواصل :

— قَوَّتِي من عند الله . فلماذا أتردَّد في مُلاحقة الشرِّ والحسد والكبرياء !؟ وأيِّ ذنب لي في ذلك ؟ هل ترينني مُداناً بِمُحِبَّتِي للحقِّ والخير والجمال !؟

فنهيب به أوصائنا :

— لا تتحلَّق ! هَيَّا أعْطِنِي فَلْدَةً من حزامك أَبْخُر بها الولد !!

XIII

... ويفتح ، في يومٍ ، أحدُ أبناء البلدة ، الملقَّب بـ « كومون » ، دفتر الدُّيُون القديمة ، ويصرُخ في وجه بابيك غاضباً ... فيتجمَّع النَّاس

حول المُتخاصِمَيْن ، قادمين من كلِّ صَوْب ، وإذا السُّوق يصبح أشبه
ببحيرة مائجة وقد كانت ساكنة . ويرى كومون أنصاره حوله ، فيشتد
عزمه ويرتفع صُراخه أعلى فأعلى ، وهو يقول :

— بحسبك ، يا باييك ! ما زال دَيْتُكَ على ما هو عليه منذ سنين .
قولوا يا عالم يا هو : ألي هذا الحدُّ يُمكن أن يتحجّر الضّمير ؟ كيف
يستطيع قلب أن يتحمل دَيْناً غَطّاه الصّدأ ؟

فيقول باييك بهدوء :

— لا ، لا ، يا عزيزي ! لا داعي لهذا الغضب كله . إني حدّثتك
مرّاتٍ من قبل ، وأذكرك الآن ، لِمَ هذا التّسيان ؟ إني جعلتك في فِئةٍ
من النَّاس ، يا كومون ! لقد أبقيتك مع أسرتك بعيداً عن المصائب التي
تُصيبها عيناى . لذلك أنصحك بالأثجادلي بعد الآن فتخلط بين القديم
والحديث ، خاصّة هنا ، في قلب السُّوق ، حيث ثمة ألفُ أذن وألف نيةٍ
سيئة ! ثم أعلم ، يا صاحبي ، أننا لا نتعرّف على القديم البتة . أطلب
الجديد فقط ، تتل السّعادة .

فيهتف كومون :

— طيّب ! أفعَل ما يحلو لك . ولا تظنّ أن حسابنا القديم يُشطب
بهذه السّهولة . هاتِ قليلاً من قُرّة عينيك ، وأنا أتنازل لك عن دَيْتِكَ
القديم !

XIV

كانت أيّام « سيروب مكرديجيان » — الذي تُلّقبه « باييك » — في
بلدتنا ، في صباي وشبابي على وجه الخصوص ، أيّاماً بهيجة تنطوي على
ذكرياتٍ عذبة .

كانت حياته ، وكذلك ما يصدر عنه من تصرفات ، تتسم كلها
بطابع متميز يسير على منوال ، بمرحه ، وبما يقدم من العون لكل
محتاج في أي مكان .

وها هو ذا يقطع العمر ، بهدوء ، في قطار الزمن ، إلى الشيخوخة ،
مُخْلِفاً ، للحيل اللاحق ، ذكريات عن الشباب وتجارب الحياة وتحمل
المشاق .

ولكنها شيخوخة لم تطل على بابيك : ذلك أنه ، بعد أزمة قلبية
أقعدته أياماً ، أطبق جفنيه ، وإلى الأبد ، على عينيْن ، كانتا بلون
السَّماء ، صَيَّابَتَيْنِ حقاً ، ولكنهما لا تَخْلُوانِ من ودِّ !

فِي بَيْتِنَا ضَبْع

حَدَّثَنَا أَبِي بِغَيْبَةِ وَشُرُور ، قَالَ :

تَمَيَّزَ شَتَاءُ ١٩٤٥ بِهَطُولِ ثُلُوجٍ مُتَوَاصِلَةٍ غَطَّتْ حُقُولَنَا وَجِبَالَنَا
وَوِغَابَاتِنَا ، وَظَلَّلْنَا طَوَالَ الشَّتَاءِ قَابِعِينَ تَحْتَ ذَلِكَ الْغِطَاءِ النَّاصِعِ الْبَيَاضِ .

كَانَ الثَّلْجُ لَا يَكْفُتُ عَنِ الْهَطُولِ ، خُصُوصاً فِي اللَّيْلِ ، يَتَخَلَّلُهُ
الْمَطَرُ ، وَالرِّيَّاحُ الَّتِي تَهْبُ وَتَعْوِي فِي الظَّلَامِ عَوَاءً يُذَكِّرُ بِعَوَاءِ قِطْعٍ ذُنَابٍ
جَائِعَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَقْتَحِمَ قَرِينَتَنَا الْأَمْنَةَ الْوَادِعَةَ .

كُنَّا نَسْتَبْقِظُ فِي الصَّبَاحِ عَلَى الْبَرْدِ الْقَارِسِ . وَبَعْدَ أَنْ نُوْقِدَ النَّارَ
وَنَحْتَسِي الْقَهْوَةَ ، أَخْرُجُ إِلَى صَحْنِ الدَّارِ ، فَأَتَوِّجُهُ إِلَى خُمِّ الدَّجَاجِ ،
أَفْتَحُ فِي الثَّلْجِ مِمراً أَسِيرُ فِيهِ قَبْلَ أَنْ أَرْجِي الثَّلْجَ عَنِ الْحَمِّ ، وَأَضَعُ الْحَبَّ
لِلدَّجَاجِ ، ثُمَّ أَذْهَبُ إِلَى السُّوقِ لِشِرَاءِ حَاجَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ ، وَأَعُودُ بَعْدَ ذَلِكَ
إِلَى تَكْسِيرِ الْحَطَبِ وَتَقْطِيعِ الْعَلْفِ لِلْبَقَرَةِ . وَأُسَاعِدُ زَوْجَتِي فِي إِشْعَالِ
التُّنُورِ لِحَبْزِ الْخُبْزِ . ثُمَّ أَعُودُ لِأَطْعَمَ الْبَقَرَةَ وَأَقُومُ بِحَلْبِهَا . بَعْدَ ذَلِكَ أَصْعَدُ إِلَى

السّطح ، حيث أزيح الثلج المتراكم فوقه . ثمّ أنزل إلى الدّار للاهتمام بأولادي وشؤوني البيتية ... إلى غير ذلك من الأعمال اليومية التي لا نهاية لها . وبعد هذا العناء ، الذي يستغرق منّي النهار بتمامه ، أجلس في المساء لأنعم بالراحة : فأضع قدح العرق أمامي ، وأتلبث منتظراً ثوارد جيرانني إلى للسهر عندي ، من غير ما دعوة بطبيعة الحال !

في كلّ ليلة ، حتى إن بلغ ارتفاع الثلج قامة إنسان ، لم يكن نجار كسب وملحقاتها ، المشهور ، « يروانت أفاريان » لينقطع عن زيارتنا ، ويكون دائماً أول من يبدأ في سرد القصص الغرامية الشائقة بأسلوبه الأسير . كان يدخل علينا سعيداً وكأنه يدخل بيته ، وفي جعبته الألف حكاية وحكاية .

أما الزائر الثاني فهو « الكوميسير » الذي يتمتع بمحصلتين : المظهر الأنيق وعزيمة الفدائي . ولم يكن له من ينافسه في حكاياته البطولية الخرافية ومغامراته الفريدة التي يضحّمها أربع مرات على الأقل !

ثمّ يأتي « السيد باييك » وزوجته ، ويأتي بعدهما « خنجّر » .

ويدخل المقدسي « هيلفور » ، الذي يقرع الأرض بعصاه على طول الطريق ، وهو يُداعب سُبْحته ، تلك التي فقّدت لمعانها من طول الاستعمال .

وكذلك يأتي « ناتان » مُصاحباً زوجته ، ولكنه بدأ أخيراً يُفضّل الهجيء وحده ، لأن زوجته باتت تُوبّخه وتُهنئه أمام الجميع ، فهو - في رأيها - يعجز عن متابعة رواية ما يُريد أن يرويهِ من الحكايات ! والواقع أنه كان يأتي ليحتسي القهوة الطازجة ويُدخّن السكائر « الثقيلة » . وأما الحكايات فهو لا يُحسن أدائها ، ولا يأتي لروايتها !

أجل ، في ذلك العهد ، كانت تسود المحبةُ والصداقة الحميمة ،
المقرونةُ بالقناعة والرّضا .

كنّا نتحلّق حول الموقد حتى مَوَهِن من الليل ، نستمع بأكل التين
اليابس والزّيب والجوّز ، فتعزّز حلاوئها ما بيننا من أواصر المحبة ، والتّلعج
يتساقط في الخارج بكثافة ، فيُغطّي كلّ شيءٍ ببحرٍ من يياض الطّمانينة
والسّلام . كنّا نشعر بالسّعادة العميقة ونحن نَسْمُر في ضوء المصابيح وعلى
أزير الخطب في التّار ، نستمع بشغفٍ إلى حكايات أفاريان ، الألف
حكاية وحكاية ، وهو يرويها بأسلوبه الأتّخاذ .

لم تكن ليالي السّمر تلك لتتقطع أبداً . ويُمكنني القول إنّ بيتنا ،
قد تحوّل في تلك الآونة إلى مركزٍ شعبيّ ، أو مسرحٍ قوميّ ، يفيض مُتعةً
ومسرةً .

ومضي أيّ في حديثه :

في تلك الليالي ، كنّا نستمع باستنشاق رائحة عُشبة الحرمل
العطرة ، وفي أيدينا أكوابُ القهوة ، ونحن نُصغي إلى حكاية النّجار
يروّات وهو يُناضل ، على رأس جيشه الخياليّ ، لاختطاف الأميرة
الجميلة من القصر الذهبيّ والمُضيّ بها إلى بلاده المظلمة ...

وقد يَفْغَر ناتان فاه دهشةً . على حين يبدو « خنجر » إلى جانب
زوجته ، وكأنّه يتملّى النّظر من مشهدٍ غراميّ يُذكره بشبابه . وكان من
عادة باييك أن يُقاطع الرّاوي بجملةٍ يزعج لها المُستمعون ، ولكنّ زوجته
ماري ، الجالسة إلى جانبه ، تلكّزه في خاصرته لتمنعه من المُقاطعة ،
فيمتعض ويلتزم الصّمت ، إلّا من كلمة حمقاء يُنفّس بها عن غيظه
الكظيم .

أما المقدسي هيلفور ، المتبسّم دائماً ، فكان مُستنداً إلى جدار الموقد
يُداعب سُبحته ، مُردّداً بين الفينة والأخرى : الحمد لله .

والكوميسير الأنيق ، الذي يبدو وكأنه مُتَهَيّئ للذهاب إلى حفلة
عُرس ، لم يكن ليتحاشى مُنافسه أفياريان في رواية طُرف من حكاياته عن
مُغامراته الخيالية التي ليس لها آخر .

... كذلك كانت تمرّ ليالينا ، تُسودها روح المحبة والأخوة
والصفاء ، فتمسح عنا قسوة الشتاء الطويلة المملة ، غير آبهين بما يقع في
الخارج ، مُستمتعين بحكاياتنا ، مُحاولين أن نُحلّ مشاكلنا اليومية بأهون
طريق .



ذات ليلة ، ونحن في عالمنا الصّغير هذا نستضيء مصباحنا اللطيف ،
فوجدنا باب بيتنا يُقرع بالأقدام قرعاً شديداً .

يقول أبي : قفزتُ في مكاني وأنا أصبح مذعوراً :

— من الطّارق ؟

فجاءني الصّوت :

— افتح ، يا جورج ! أنا جارك أبراهام . هيا افتح لي بسرعة .

فتحْتُ له الباب . ويا لهول ما رأيت : آتلفج جارنا أبراهام قمبر إلى
الدّاخل على نحو جعل كلّ مَنْ في الغرفة يقفز مذعوراً . والحكايات
توقفت ، وأنقطعت أوتار الطّرب ، قبل أن نتبيّن ما يجري . والسيدة روزا
لم تستطع إلا أن تصبح مُعترضة :

— هُذِي لَيْسَتْ لَيْلَةَ عِيدٍ ! مَنِ هَذَا الْفِظْ ، الَّذِي يَفْتَحُم عَلَى النَّاسِ
بِیُوتِهِمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّیْلِ ، مُعْكَراً عَلَيْهِمْ صَفْوَهُمْ ؟ !

فَیَرِدْ عَلَیْهَا زَوْجُهَا :

— أَسْكَتِي ، يَا أَمْرَأَةً ! أَلَا تَرِينَ أَنَّ مَنْ هُوَ أَمَامَكَ إِنَّمَا هُوَ الرَّجُلُ
الَّذِي تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنُكَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ إِنَّهُ قَمِيرٌ ! هِیَا أَسْكَتِي !

فَتَعُودُ رُوزًا إِلَى الْقَوْلِ :

— وَیَحْكَ ! مَا هَذَا !؟

وَتُرَدِّدُ مَارِي زَوْجَةً بِأَبِیْكَ :

— آه آه ! مَا هَذَا ؟ تَبَّأُ لَكَ ! نَحْنُ لَسْنَا فِي یَوْمِ رَأْسِ السَّنَةِ أَوْ فِي
عَیْدِ الْمِیْلَادِ !

فَیَنْبَرِي الْكُومِیْسِيرُ قَائِلًا :

— يَا هَذَا ! لِمَاذَا تَحْمِلُ الْكَيْسَ عَلَى ظَهْرِكَ ؟ فَلَيْسَتْ هَذِهِ لَيْلَةُ الْمِیْلَادِ
لَتُفَاجِنَا بِهَدَايَاكَ !

وَأَخِيرًا حَضَبَهُمْ أَفَارِيانٌ عَلَى الْإِتْزَامِ الصَّمْتِ ، وَهُوَ يَنْهَضُ غَاضِبًا :

— صَمْتًا ، يَا جَمَاعَةَ ! دَعُونَا نَتَعَرَّفُ الْحَقِيقَةَ . مَا فَائِدَةُ هَذَا الْكَلَامِ
الْفَارِغِ ؟ وَأَنْتِ ، يَا قَمِيرٌ ، أَنْزِلِي جِئْمَلَكَ مِنْ عَلَى ظَهْرِكَ ، وَاجْلِسِي وَخُذِي
رَاحَتَكَ ، وَتَنَاوَلِي فَتُجَانِ قَهْوَةَ ، ثُمَّ آخِذِي لَنَا بِهْدُوءٍ عَمَّا تَحْمِلُهُ لَنَا مِنْ
مُفَاجَأَةٍ .

أُجَابُ قَمِيرٌ :

— أَصْبِرُوا ! وَسَوْفَ أَحْكِي لَكُمْ كُلَّ شَيْءٍ !

وأخذ يُقهقه عالياً .

وضع جِملَه على الأرض . وراح يُفكّ أطراف عباة المعقودة
بإحكام ، وعيوننا شاخصة إليه بفضول ...

فماذا رأينا ؟

خرج من العباءة جَرَوْ ضَبِع ، بَهَرَه ضوءُ المصباح فتوقف لا يدري
ما يفعل . بدا مِثْلَ قِطْعَةٍ قد ضُربت ضرباً مُبرِّحاً . ثمَّ انسحب إلى ركن
في الغرفة ليجلس مُتَقَوِّعاً على نفسه ، وقد حلَّ به الخوف وأعترته الرّهبة
وهو الحيوان المفترس !

آلُفتُ زوجة باييك إلى زوجها تقول :

— ويلي ! عوئك ، يا مسيح !

وآحتمت روزا العجوز بزوجها ، وقد آتناها الخوف وهي التي دأبت
على أن تزور جيرانها في ظلام الليل ضاربة في الأزقة الضيقة .

وأما خنجر ، الذي لا يهاب شيئاً ، المدّعي أن قتل ضبيع عنده أشبه
بقتل بعوضة ، فقد قفز من مكانه ، وصاح :

— قمبر ! هل تعتقد أنك ، بِحَمْلِكَ جَرَوْ ضبيع إلى هنا ، تُظهر
شجاعةً ، وأنت تُلْفِه بعباءتك ؟ أسمع الآن مني ، إن كان قد فائك أن
تسمع : في العام الفائت ، عندما كنتُ مُهاجراً ، أمسكتُ ، وأنا في
طريق أسكوران ، بضبع كبير ، وأخذتُ أُجرّه جَرّاً حتى وصلتُ به إلى
باحة بيتنا . كان في حجم حمار ، ولكنني جَرَرْتُهُ مِثْلَ كلب . وبعد أن
أوسعته ضرباً ، لوحشيتّه ، أَجْهَزْتُ عليه بِخُنْجَرِي الحادّ .

فقال أبي :

— بحسبك ، يا « خنجر » ! نحن لم نسمع منك هذه القصة قبل اليوم ، فمن أين اخترعتها الآن ؟ !

فقال الكوميسير :

— لو أنك تَمَنُّ يُصَدِّقُونَ القصص ، يا جورج ، لكان الخبر وصل إليك ! من ناحيتي سمعتُ هذه القصة ، ولكني لم أُصَدِّقها . يبدو أن العم خنجر تخيل أن جَرَجَرَتَه لابن أخيه العنيد هي جرجرة لضبع كبير !

أجاب خنجر ، مَطْعُوناً في كبريائه :

— أنت أنت ، لا يحق لك الكلام ، يا كوميسير . أنت لم تَذْبَحَ حَمَلاً ودبعا في حياتك كلها !

فأنتهرهم باييك :

— كفى كفى ، يا جماعة ! بدلاً من أن تُهَيِّئُوا جازنا أبراهام الجسور على شجاعته ، وثَّابَرُوا صَنِيعه ، رُحِمَ تَتَبَاهُونَ بِبُطُولَاتِكُمُ الْخِيَالِيَّةِ وتمتدحون أنفسكم ، وتتناقرون ! ثُوبُوا إلى رُشدكم ، وفكِّروا بالواقع : ماذا يعني جَلْبُ ضَبْعٍ حَيّاً إلى هنا ؟ !

وهنا قال أبي :

— اجلس ، يا جار ، اجلس . إننا نراك ، منذ الساعة ، شجاعاً وفريداً في شجاعتك لما أنجزته الليلة من بطولة . استرخ ، وأهدأ ، وأشرب القهوة ، ثم حدثنا كيف أستطعت أن تقتنص هذا الوحش ، الذي أفرعنا به لدى دُخولك ، ثم سررنا بعد ذلك سروراً كبيراً ؟ !

ويأخذ قمبر ، الشجاع ، في رواية قصته مع الضبع ، وهو يحتسي
القهوة رشفة بعد رشفة ... قال :

— الحقيقة أنني أردت ، يا أخ جورج ، أن أقضي السهرة بينكم .
ولكن زوجتي لم تُوافقني ، قالت : « يا رجل ! وهل يخرج أحد من بيته
إلى بيوت الآخرين ، في مثل هذه الليلة الباردة ؟ دَعَكَ في بيتك
ولا تُبارحه ! » . ولكني — أعترف لكم — لا أستطيع أن ألبث في
البيت . قلت لها : « ولماذا تقولين « بيوت الآخرين » ، يا امرأة ؟ كلنا
جيران ، أخوة وأخوات . المرء بالمرء يحيا ، وبالتقارب تزدهر المحبة » .
ولكن زوجتي لم تقتنع ، وأخذت ترشقني بالكلمات الجارحة . وخشية
أن يتطور الأمر ، ويدخل الشيطان الأسود بيننا ، نهضت ، وألقيت
عباءتي على كتفي ، وفتحت الباب ، وأندفعت إلى الطريق . ولم أكذ
أبتعد عن البيت عشرين خطوة ، حتى أحسست برغبتني في قضاء حاجة .
ولم أشأ أن أعود إلى البيت ، فالتجأت إلى جدار المقبرة . فعَلْتُ ،
وقُمتُ ، ولكن شيئاً ما دفعني في ظهري ، ثم استقرّ فوق . عرفت أنه
حيوان مفترس ... فتلبّثت في موضعي ولم آت بحركة !

يقول أي :

فأنشدت أبصارنا ، نحن الذين نُصغي ، إلى الضبع الذي يرمز عندنا
إلى الوحشية والغدر ، وقد أنهرت أنفاسنا ، وآنظرنا أن يتابع أبراهام
روايته ...

قال ، بعد أن آرتشف ثمالة فنجان :

— الثلج ، يا جيران ، يندف خفيفاً ، وأنا في مكانٍ يُخيم عليه
صمتُ القبور ، فأسمعُ صوتَ أنفاس الوحش وصرير أنيابه ! قلت في

نفسى : ليتك آستمعت إلى نصيحة زوجتك ، يا أبراهام ، فوقيت نفسك الوقوع في هذا المأزق القاتل ! ولكن كان قد فات أوان الندم ، فالضبع شرع في أقتراسي ، مُبتدئاً برقبتي ، التي تَلَفَّها العبادة . فكرت : أنا ، الآن ، معرضٌ للموت أقتراساً ! ولا خلاصَ لي إلا بمعجزة . وأنبثقت هنا في رأسي فكرة : آستمعتُ قوّتي كلّها ، وفي مثل لَمَحِ البصر أَلقيتُ بعباءتي على الوحش ... فإذا هو يجد نفسه في فَنَح ! فأخذ يُقاوم بشراسة ، مُحاولاً الإفلات ، وكاد يُحطّم ظهري لو لا عنايةُ الله وبركة حليب البقرات المُقدّسات الذي غَدَى عظامي ، فأحتملتُ وصابرت ، وخرجتُ من المعركة مُتصراً ، بفضل هذه العبادة المنسوجة من شعر الماعز ، المباركة ، التي صمدت لمقاومة الضبع فلم تتمزّق ... وأُخْبِيتُ ، بعد نجاتي من الموت ، أن تُشاركوني فرحة انتصاري ، وأن أقدم لكم هذه المُداعبة التي قد تكون ثقيلة ، ولكني ما أشك في أنها مُبهجة أيضاً !

هتف أبي وقد أخذته الحماسة ، مُنتشياً :

— حُيِّيتُ ، يا جارنا أبراهام ، أيها الجار الشجاع ! إن ما فعلته الليلة يحولني على أن أسترجع ، يا شفاقي ، ذكرى ماضية . فلو أنّ كلَّ فردٍ من أبناء أمتنا حذا حَذْوَك ، لَكُنَّا آستطعنا أن نُحَكِّم قبضتنا على أعدائنا من الضباع البشريّة ، تلك التي حاولت إبادة شعبٍ مُسالِمٍ بكامله ، ونجححت في القضاء على عدد كبير منه .

قال بابيك بلهجة مؤثّرة :

— أحسنت التعبير ، يا جورج . هدُفك سامٍ ولا شك . ومن يدري ، فعملُ الكلام والعمل بالأمثال ، يكونان آستمراراً للتضال ... أليس كذلك ؟

قال أبي :

— لا ، يا بابيك ! إذا كنّا لم نتعلّم على مرّ السنين بالمشاعر ، فإنّنا لم نتوقّف عن التّطرّ .

وكان الضّبع خلال ذلك كلّهُ ، يقبّع في زاويته كالقطّة المذعورة .

قالت روزا :

— أوّقدِ النّار ، يا جورج ، ودّعها لاهبة . فإنّ الضّبع أخّ للعتمة .
فإنّ حدث أنّ الغرفة أُظلمتْ ، لا سمح الله ، استفاق الضّبع ،
وأستوحش ، وأنقضّ علينا !

كانت تنطق بكلماتها ، بهدوءٍ وفصاحةٍ معاً ، كلمةً كلمة .

فيقول خنجر ، هوسيب بولاديان :

— لا تجزّعي ، يا سيدتي ! إنّ قتل ضبعٍ لا يستغرق سوى دقيقة .

فينبري الكوميسير كريكور ساغجيان قائلاً :

— كّفوا عن هذا اللّغو ، وأستمعوا إليّ أقصّ عليكم قصّةً تُبدّد
قلقكم .

فقال أبي :

— دُع قصّتك إلى يوم غد ، يا عزيزي . فنحن لم ننتهِ بعد من
محكمة الضّبع .

وتدخّل أفاريان :

— فلننتبه منه قبل أنقضاء الدفيقة ، يا جورج ! (ونهض واقفاً) لقد
تعكرت رائحة بيتك ! وإني أحسّ بالعثيان .

قالت ماري بصوت يرتعش :

— نعم نعم . صارت رائحة الغرفة نبتة لا تُحتمل . أخرجوا هذا
اللعين من هنا ، وأقتلوه !

وشرع خنجر في لفّ سيكارة غليظة ، وهو يجترّ ذكرياته السعيدة .

ويُوصي أبي أمي على أربعة فناجين قهوة من جديد . ويومئ برأسه
إلى أبراهام ، فيقفز هذا كفدائيّ مُقدّم على عمل ، مُقترِباً من الضّبع .
ولكنّه قبل أن يبدأ يقول قولة الواثق :

— يقولون إنّ الضّبع يتأثر بالنور فيعشى بصره ويُصبح أطوع من
حَمَل . وما كنتُ أصدّق . أما الآن ، وبعد أن آقتنصته بمحض
المصادفة ، عرفتُ الحقيقة .

فيقول أبي وهو يتبسّم :

— نعم ، يا جاري ! إنها صفة يتّصف بها المذنبون . إنهم يخافون
إذا ما أُلقيت عليهم الأضواء ، لأنهم يُفتَضّحون أمام الحقيقة .

مطعم المغتربين

بعد أن ساح « آغوب ولاديان » - الذي يُجيد سبع لغات - في أنحاء العالم ، وزار أكثر عواصم الدنيا حضارةً ، استقرّ رأيه على العودة إلى بلده كَسَب . وأراد أن يستفيد من مهارته في الطبخ ، فيفتح مطعماً يُؤمن به مُتطلبات حياته .

وحقق مشروعه في يومٍ من أيام العام ١٩٥٠ . استأجر كشكاً من خشب بجوار مقهى میناس القهوائي ، وجّهزه بالطاولات والكراسي ، واختار له اسماً : « مطعم المغتربين » ، خطّه على لافتةٍ علّقها فوق المطعم .

ثمّ إنّ الخبر انتشر في كَسَب ، حتى وصل إلى القرى المجاورة ، القريب منها والبعيد .

المطعم يحمل اسم مطعم المغتربين ...!

ولكن من هم المغتربون ؟ وأين هم ؟ فإنّ سلّمنا بوجودهم في

جهات الدّنيا الأربع ، فأين نلقاهم في كَسْب ؟ ولو كانوا جاؤوا إليها ، فماذا يفعلون فيها ، في الوقت الذي ينزح شبّان كَسْب إلى المُلْدن ، طلباً للرّزق ، ويذهبون إلى بلاد الاغتراب حيثما كانت ؟

وتوجّه أبي إلى آغوب ولاديان ، ليبارك له في مطعمه الجديد ، ويتمنّي له التّجّاح . وفي الحقيقة ، لم يرقّ لأبي هذا الاسم ، الذي أطلقه صديقه على مطعمه ، ورأى أنه بعيدٌ عن الذّوق ، فقال يُحاوره :

— آغوب ! ما الذي حمّلك على ابتكار كلمة « المغترين » ، المحزن هذه ، اسماً لمطعمك ؟ أعتقد أن ليس هناك إنسان في كَسْب ، أو في القرى المجاورة ، يعتبر نفسه مُغترباً ، حتى يجذبه الاسمُ فيأتي إليك يسدّ جوعته في مطعمك ! وما دام ليس في كَسْب من يأتي إليها من الخارج مُغترباً ، لا وليس فيها خارجٌ من الدّاخل ، فأني أقترح عليك أن تستبدل بهذا الاسم غيره . والله يُوفقك ويُسّر عملك .

فانتفض ولاديان مُزعجاً :

— ماذا تقول ، يا معلّم ؟ قادمون وخارجون ! ألسنا كلنا مُغترين في هذه الدّنيا ؟ لا يدخل أحدٌ من الخارج ، ولا يخرج أحدٌ من الدّاخل ، لأننا جميعاً ، غنياً وفقيراً ، شيخاً وشاباً ، مُغربون بلا استثناء في هذه الدّنيا .

فيقول أبي :

— لك ما تُريد ، يا آغوب ! أتمنّي لك التّجّاح من كلّ قلبي . ولكني لا أدري لماذا أحسّ أن كلمة « مغترين » هذه تنطوي على رنة

حُزن . أقترح عليك لو تُعَيِّرَ الاسم وتجعله « النذر الجديد » بدلاً من
المغترين !

فُجِيب ولاديان :

— لِيَبْقَ الاسمُ على حاله مدّة ، يا معلّم . فإنّ لم أُلَاقِ النّجاح
أَسْتَبْدَلْتُ به اسم النذر الجديد ، وعلى الله الاتّكال .

فأكد أبي :

— إنّ للاسم تأثيراً كبيراً . فإنّي رأيتُ فندقٍ يدبّ فيه النّشاط ، من
يوم أن غيّرتُ اسمه من لوّكس إلى أميرة .

قال أبي ذلك مُبتسماً ، وتركه ومضى إلى النّادي .

الطباخ ديمتري

ذات صباح من صيف العام ١٩٦٠ ، أستخدم أبي طباخاً يوناني الجنسية ، يُدعى « ديمتري » ، ليعمل في مطعم الفندق .

وأحبّ أبي أن يختبر هذا الطباخ ، فأسرع إلى السوق ، واشترى له كلّ ما يلزم من الخضار واللحوم ، وصنّجه إلى المطبخ ، وقال :

— هيا أَرنا مهارتك في الطبخ اليوناني !

فأجاب ديمتري : أنا عندُ حُسن ظنّك ، يا معلّمي !

وشرع في العمل .

ثمّ إنه حانت ساعة الغداء ، وتجاوزتها عقاربُ السّاعة ... فأسرع أبي إلى المطبخ ، فلم يجد طعاماً ، لا وليس ثمة رائحة لحم يُطبخ !

صاح أبي مُغتاظاً : أين الطّعام ، يا ديمتري !؟

فتساءل الطباخ بِبرود :

— أيّ طعامٍ تعني ؟ نحن لا نطعم إلا في المساء !!

سانا كريم بغداداريان

في عهد الوحدة بين سورية ومصر ، وعلى وجه التحديد في العام ١٩٦٠ ، أخذ بعض الأرمن المصريين يتزلون في فندقنا .

وكان منهم أسرة عرّف صاحبها بنفسه إلى أبي ، قال :

— اسمي « سانا كريم » ، وكُنيتي « بغداداريان » . أرمني من صر . أجد كثيراً من المهن والفنون : قضيتُ مدّة في الحلاقة النسائية ، لكنني وجدت أنّ التعامل مع رؤوس النساء مُتعباً ، فتركْتُ هذه المهنة . عملتُ في التصوير الضوئي ، ولكنني لم أحتمل نظرات الحقد التي تُوجّه لي وأنا بين الجمهور المختلط من الرجال والنساء ، فتركْتُ هذه المهنة أيضاً . عملتُ موظفاً في إحدى الشركات ، هنا أيضاً أحسستُ أنّ سيري كاد يتفد ، فقرّرتُ الاستغناء عن هذا العمل . خُصّيتُ بحر الحياطة النسائية ... والله الحمد أحببتُ هذه المهنة ، أخيراً ، وما زلتُ مارسها .

فقال له أبي مُمازحاً :

— حسناً فعلت ، يا ديمتري ، إذ تركتَ الرُّؤوس والوُجوه ، ونزلتَ
إلى ما تحتها حتى وصلتَ إلى ... الرُّكَب !

والطَّريف في أمره أنَّه تعرّف ، بفضل هذه المهنة ، على المرأة التي
عَدَّت رفيقة حياته ، وقادته نحو شاطئ الأمان ، تشدُّ أزره وتُشجِّعه على
المُضيِّ قُدماً في مهنته .

وها هما ، الزَّوجان ، اليومَ ، هنا .

عندما كان أبي نجاراً

عندما كان أبي يعمل في مهنة النجارة ، تعهد عملاً خفيفاً في مكانٍ قريب من قلعة كَسَب .

وذات صباح ، حمل عُذَّتُه ومضى لمباشرة عمله . وما كاد يصل إلى مشارف بيت « مازموني » حتى سمع صرخاتٍ استغاثة ، فاستحثَّ خطاه حتى وصل إلى حيث الصَّوت ، فرأى « آستييان أفاريان » (مازموني) وهو يتدحرج من أعلى التلِّ مُنحليراً إلى الوادي تُرافقه خيوطٌ قد صنعها من شعر الماعز !

فخفَّ أبي إلى نَجْدَتِه .

في هذه اللحظة ، وعند المرتقى ، لاحَثَ لأبي شابةٌ جميلةٌ الطَّلعة ، يعرفها ، تُدعى « مارتا » ، من أسرة « عبدوليان » التي تُصاير أفاريان . وتراءى لها أن تعرض على أبي كيف يُمكن إنقاذ المُصاب ، وأن تشرح له ، كذلك ، الأسباب التي أدَّت إلى وقوع هذا الحادث !

فقاطعها أبي وهو يستعدّ لانتشال الرّجل ، الذي كان يئنّ مثل
حشرة وقعت في شباك عنكبوت :

— ليس هذا وقت عرض الآراء ، يا سيّدي ! دعي ذلك إلى ما بعد
إنقاذه .

والمصّاب يُتابع استغاثته :

— النّجدة ! الحقّولي ! أنقّصم ظهري .

كانت زوجة مازموني في الإصطبل مشغولة بتقديم الطّعام إلى
الماعز . فلما ترامت إليها الاستغاثة ، أندفعت إلى الخارج . وما إن رأت
زوجها على هذه الحال حتى أخذت تشدّ شعرها وتؤلّول .

فنهرا أبي :

— أهديني ، يا امرأة ! لا داعي لهذا الجنون ! زوجك سليم معافي .
أنظري إليه . كلّ ما هنالك أنّه يتألّم ، كما يبدو ، من وجع في ظهره
بسبب هذه السّقطة ! لا حاجة إلى هذا الاضطراب . أهديني !

وبدلاً من أن تهدأ المرأة أخذت تضرب يديها على رُكبتها ، وتنوح :

— واهاً لك ، يا زوجي الطّيب الودّي المطيع ! أأكان مكتوباً عليّ أن
أنتظر هذا اليوم فأراك على هذه الحال ؟! وبلي ، يا ملاكي العزيز !

فأنبرت مارتا توجّه الخطاب إلى زوجة أستييان :

— تقولين عنه « ملاك » بدلاً من أن تقولي « شيطان » ؟ إنه
يستحقّ ما وقع له ! لقد نال جزاءه !

فندخل أبي :

— ماذا تقولين ، يا مارتا ؟ ما الداعي إلى هذا القول ؟ أنظري إلى الرجل وهو يتلوّى من الألم . أخشى أن يكون قد كُسِرَ عضوٌ فيه !

قالت كَنَّةٌ عبدوليان :

— فليَنكسرْ ، لعلّه يترى ! يُريد ، الخبيث ، أن يأكلني بعينه بنظراتٍ فاجرة ، ويُرقص لي شاربيه !

قال أبي :

— حسنٌ ، يا امرأة . لتوجّل النظر في المسألة إلى ما بعد . أهدئي الآن .

وتابع إسعاف الرجل ، بأن سَجّاه على مقعدٍ خشبيّ تحت الشرفة . وبعد أن أطمأن عليه ، ألقت إلى مارتا قائلاً :

— الآن ، يُمكنك أن تقولي ما تُريدن ، يا سيّدي !

على حين كانت زوجة مازموني ، تُعول ، رافعةً يديها إلى السماء ، تلتمس من الله العون .

وتشجّعت مارتا ، فأسترسلت تقول :

— نعم ، نعم ، سأحكي ، ولتعلم الجميع ، ولتعمّ عيون الرجال النّهمين ! كنت قبل قليل أسير في مُنحدر القلعة ، ورأيت هذا الرجل (وأشارت إلى آستييان المُسجّي على المقعد الخشبيّ) ، مُرتقياً المقعد ، يقوم بعملٍ ما ، مُرتحاً تحت شجرة الثّوت ، يشدّ خيوطاً ينسجها بطول

عشرة أمتار إلى الأمام وعشرة إلى الوراء ، يروح وبجيء ، يُعلقها وفق رغبته . فلما لمحني ، سدّد إليّ نظراتٍ من عينيه الصّبيّتين حتى لم تعودا تطرفان ! قلت في نفسي : ثرى ، ألم ير رجالُ هذا الحيّ امرأةً من قبل ١٩ وتابعتُ سيرى وكأنّ الأمر لا يعنيني . فلما أقتربتُ ، من آستيانكم هذا ، بدأ يفتل شاربيه الرّفيعين ، ويتسم ، ويغمز بعينه ، وصفر صفرة إعجاب وإغواء ، مُنشغلاً عما بين يديه من كرات الخيطان التي تُثوس ، وعن الهوة المتربّصة به من خلفه . أردتُ أن أنبّه هذا الرّذيل بما يستحقّ من كلمات ، فإذا به ، وهو يُعاكسني مُتقدماً ومُترجعاً ، نُزّلَ قدمه ، ويتدحرج في الهوة بكلّ جسمه . فصرختُ ، وأستغفرتُ ربّي ، وهممتُ بأن أبتعد عن المكان ... لولا أن رأيْتُك أمامي وكأنك تسدّ عليّ الطريق . إنّ من واجبي أن أعلن الحقيقة وأبين سبب سُقوطه ١١

ههنا توجّه أبي إلى مازموني ، المصاب ، يسأله :

— بعد أن كُيّت لك التّجاة ، بماذا تُدافع عن نفسك ، يا آستيان ؟

فأجاب :

— أرحموني ، حُبّاً بالله . أنا ما نظرتُ إليها نظرة غشّ . فلتنعم عين من ينظر إليها بغشّ ، وليخرب بيته !

قال ذلك ، وهو يُحاول الجلوس ، فمنعه من ذلك ظهره المرضوض .

فردّ أبي مُقرّعاً :

— أوليس هذا خراب بيتك ، يا رجل ؟ أم ماذا تُسميه ؟!

رفع آستيان صوته ، مُتظاهراً بأنه لم يفهم ما عناه أبي :

— إن لم يَحْتَبِرْنَا الله نحن البشر ، هل يختبر الحجر ؟!

وأما زوجته ، فكانت تُتابع نواحيها :

— ويلي ، يا ملاكي !

أراكم في السماء

حدثنا أبي أنه كان يعيش في لبنان رجلاً من كَسْب ، يُرَاسِلُ خَطِّياً
ويُخاطب هاتفياً أخاه له يُقيم في كُنْدا منذ زمن بعيد .

ذات يوم ، سأل الأخ المُقيم في كندا أخاه المُقيم في لبنان ، قال :
— هاغوب ! ماذا لو بعثتُ أُمِّي إلينا لننعم برؤيتها ؟ فقد مضى زمنٌ
طويل دون أن نراها ، ونحن في شوقٍ إليها !
أجاب هاغوب من لبنان :

— حسناً تقول ، يا سر كيس . سأبعثها إليك في أقرب فرصة .
إنها ، كذلك ، لا تنقطع ، ليلَ نهار ، عن إِرْداد اسمك قائلةً : « أبني
سر كيس ! » ، وتذوب شوقاً ، وتذوي .

ومن سوء الحظّ أنّ الأمّ ماتت بعد شهر واحد من تلك المُكالمة
الهاتفية . وكان لا بدّ من أن يُبلغ هاغوب أخاه في كندا بذلك ، فاتّصل
به هاتفياً ، وقال :

— أخِي سركيس ! لقد بعثنا أمك ...

وفجأة حصل تشويشٌ في الهاتف ، جعل كلمات هاغوب تضعيع في
الهواء !

على أن عبارة « بعثنا أمك » أشرقت بأبدع الأنوار في نفس سركيس
المُشتاق إلى أمّه ... فتوجّه من فوره إلى المطار لاستقبالها .

لكنّه بعد يومين من الذهاب إلى المطار ، والاستفسار عن وصول
أمّه ، عاد إلى بيته خائباً يائساً ، وهو يُكابِد الأشواق لرؤية أمّه .

ثمّ إنّ سركيس تلقّى ، ذات صباح ، برفيّة تتضمّن هذه الجُمْل
المُقتضبة :

« أخِي العزيز . أعلمك ، ببالغ الأسى ، أننا بعثنا أمك إلى مدينة
القدس النّيرة ، وكانت آخر كلماتها : أراكم هناك في السّماء » .

أبي في روما

في العام ١٩٥٥ ، اضطرَّ أبي إلى أن يُسافر إلى أمريكا الجنوبيَّة
لتشييع أخيه المقيم هنالك مُهاجراً والذي تُوفاه الله على فجأة .

وبعد أن عانى مرارة الحزن على أخيه ، وشرب - على مدى عام -
كأس الغربة حتى الثمالة ، قرَّر العودة إلى أهله ومسقط رأسه .

وكانت رحلة العودة ، في شركة « ك . ل . م » ، تستوجب أن
يقضي أربعاً وعشرين ساعة في روما .



نزل في روما مع العشرات من أمثاله ، وتوجَّهوا إلى فندق حُجزت
لهم فيه الغرف للمبيت فيه ليلتهم ، على أن يقضُوا نهار اليوم التالي في
التجول في المدينة والتعرُّف على آثارها وتماثيلها ومنشأتها الهندسيَّة
والمعماريَّة .

وكان يتوجب على أبي ، بناءً على تعليمات شركة الطيران ، أن يُؤشِّر

على جواز سفره من السفارة السوريّة في العاصمة روما ، وإلا فأنته الرحلة وأضطرّ إلى أن ينتظر الرحلة التالية بعد أسبوع كامل يتحمل خلاله نفقات الإقامة ! ولما كانت هذه التفقات باهظة فقد عزم على أن تكون أول مهامه في هذا اليوم أن يحصل على التأشيرة من السفارة السوريّة .

ولما كان أبي لا يعرف - بعد لغته الأم - غير التركيّة ، وقليل من العربيّة ، ولا يملك وسيلة للتفاهم سوى الإشارات ، فقد حمل توتاً جواز سفره بيده ، ورفعته عالياً ، واستوقف سيارة أجرة لتقلّه إلى حيث يريد . وتمكّن أن يقول للسائق :

— قنصولات سوري ١

فأولاً السائق برأسه علامة الفهم ، ودعا أبي إلى الصعود .

وبعد أن استقرّ بجانب السائق ، أعاد عليه عبارة « قنصولات سوري » . فأنطلق هذا بسيارته ينهب الأرض نهباً ، وأبي إلى جواره مثل تلميذ مطيع .

بعد ساعة من ذلك ، بدأ القلق يُساور أبي ، خصوصاً بعد أن رأى أنه أصبح في مكانٍ خلويّ . فراح يحتجّ ، بالإشارة وبإصداره بعض الأصوات . وكأنّ السائق أدرك قصده فراح يهدئي من روعه ، بالإشارة أيضاً ، أن آصبر ، سوف نصل ! ولكن كيف يهدأ وهو الذي طالما سمع عن مهارة الإيطاليين في استعمال السكين ؟ وأخذ يبحث في جيبيه عن سكين ، ولو صغيرة ، يُدافع بها عن نفسه عند الضرورة !

أخيراً ، توقفت السيّارة أمام قصر ، على بابه رجلٌ يعتمر قبةً تكاد تغطّي عينيه .

غادر أبي السيّارة ، وهو يلعن ويشتم . وأزدادت غضبته عندما مدّ له السائق يداً بفاتورة الحساب ، التي بلغت خمسين دولاراً ، دفعها صاغراً لأنه أجنبي !

أنجز أبي مهمته في السفارة ، وخرج منها ظافراً . وعلى بابها أشار بيده ، لأول شخص صادفه ، ببطاقة الفندق الذي ينزل فيه . قرأها الرجل وآتسم ، ورافقه ، سيراً على الأقدام ، إلى الفندق الذي كان يقع في الشارع المجاور !

وبذلك يكون أبي قد دفع خمسين دولاراً في خمسين متراً . وكانت الساعتان اللتان قضاهما من أفسى الذكريات عنده !



تقلّب أبي في سريره طويلاً ، وهو يحلم بشروق شمس اليوم التالي ، آملاً أن يلتقي أرمينيا يتحدث إليه بلغته الأم ويثبته همه لما لقيته في يومه السابق ، وعمّا شاهده في أمريكا الجنوبيّة ، إلى غير ذلك ممّا يُنفث به عن صدره ، بعدما أحسّ وكأنّ لسانه قد شلّ لعدم قدرته على النطق بكلمة .

وفي الصّباح تناول فطوره ، وألقى بنفسه إلى الشارع .

وبعد تجوالٍ طويل ، هنا وهناك ، وحيداً فريداً بلا معارف ولا أصحاب ، حتى الظّهيرة ، دخل مطعماً ليستريح فيه من عناء المشي ، ويتناول شيئاً من طعامٍ يسدّ به رمقه ، وقليلاً من الشراب يُطفئ به عطشه .

اتّخذ مجلسه في المطعم ، وهو ما زال يتوقّع حدوث المعجزة بأن يُصادف أرمينيا يتحدث إليه بلغته الأم .

ووقعت المعجزة !

إذ بينما هو جالسٌ ، رثت في أذنه كلمات أرمينية ، تسللت إلى أعماق روحه . فتلفت حواليه ، كمن آستيقظ من حلم عميق ، يبحث عن مصدر الصوت .

ورثت الكلمات الأرمينية مرة أخرى ، تقول :

— لماذا يا سيرانوش ١٩ ألم يُعجبك ؟

ولم يُطّق أبي صبراً ، فنهض من فوره وتوجّه نحو الرجل والمرأة اللذين يتكلمان الأرمينية . فبادرهما بالسّلام ، وجلس إلى مائدتهم دوغما دعوة أو آستندان ، فأصبح ثالثهما .

وآستقبله أرمينيا روما بترحاب ، لبساطته . وقدما إليه نفسيهما : السيّد سيرانوش ، والسيّد يعنيا .

وآتحلت ، بهذا التّعارف السّعيد ، عُقدة لسان أبي ، وأخذ يحكي بطلاقة عن كسب وجبالها الخضراء ، ويعود إلى الحديث عن أمريكا الجنوبيّة ، ثمّ ينتقل إلى رواية ما جرى له في روما يوم أمس ... فأضحك بذلك الزّوجين إلى درجة القهقهة . وعذّب الحديث بينهم وطاب مأخذاً ، وكأّتهم متعارفون منذ زمن بعيد .

وأخذت كؤوس التّبيذ ترتفع ، وثرن بالأنخاب ، وتنزل فارغةً ، لتنعش الأرواح الصّديّة .

وسعد أبي بهذا اللقاء ، وآتتهزها فرصة ليسان السيّد يعنيا عن عادات أهل روما ، وأسلوب معيشتهم ، وحياتهم اليوميّة .

فقال يَغيا :

— ذَكَّرتني ، يا سيّد جورج ، بما تبحث عنه ، بشعر يتغنى به
الرومانيون منذ قديم الزمن ، هو مثل سائر جاء في قالب شعري ، يقول :

أستند وليدي بجسده الندي

إلى الجدار

فإذا سارع إلى السقوط ، بالخوف والبكاء

فويلاه ! يَكبر سارقاً شريراً ...

وطفلي الوليد ، بجسده الندي

إذا أستند إلى الجدار ، كُرْفَة عين ،

غداً تحتاً ماهرأ ،

أو يبعث مسيحاً من جديد .

هتف أبي :

— عظيم ، سيّد يَغيا ! هذا ما أبحث عنه فعلاً . وما أحسن

ما رويت ! الآن أدرك أنّ سائق الأمس ينتمي إلى الرباعية الأولى !

ثم جرع نصف كأسه ، وقال :

— لكن ، يا سيّد يَغيا ، هل يعمل أرمن روما بهذا المثل فيما بينهم ؟

قال أرمني روما مُستنكراً :

— ماذا تقول ، يا أخ جورج ؟ لا حاجة بالأرمن إلى مثل هذا

المثل ، لأنهم ، منذ الولادة ، مُهندسون وصناعيون .

فأبتسم أبي فخوراً بقومه المهندسين الصناعيين الأجداد ، ورفع كأسه
يشرب نخب قومه ووطنه .

بعد ذلك اعتذر السيد والسيدة بحجة غسل أيديهما ، وغابا وراء
الجدران .

وآتظنر أبي عودتهما ... وطال آتظناره ...

ثم جاءه السّاقى يطلب الحساب .

ولجهل أبي باللغة فقد دفع الفاتورة ، مئة دولار ، صاغراً ، دون أن
يعرف أين ذهب أرمنياً روما ، المهندسان الصناعيان منذ الولادة !

سائق باصر قريتنا

أعتزل «كارنيك» ، سائق باصر قريتنا ، قيادة الباص وسلّمه إلى «هرانت» ، ولزم البيت بلا عمل ... فجعل يقضي اليوم في الشرفة ، يشرب العرق ويدخن التريكة ، ولا يكفّ عن الشجار مع زوجته مكيلاً لها الشتائم من الصّباح حتى المساء ... حتى ملّ هذه الحياة الرّتيبة ، التي لا تُدرّ ربحاً لكنها تُضرب بصحّة وماله ، لذلك أعتزم البحث عن عمل آخر ، يَشغَل به وقته ويكسب المال .

وكان السّائق كارنيك قد أخذ عن أبيه وأخيه المعرفة بقلع الأسنان ، وكان ماهراً فيها فعلاً . فقرأى له أن يُمارس هذه المهنة ، وأختمرت الفكرة في رأسه ، وتجنّحت ، وحلّقت في أجواء خياله حتى صبحّ عزمه على تنفيذها .

وما كاد يُمارس هذه المهنة حتى ذاع صيته في البلدة وامتدّ إلى القرى المجاورة . ومن طريف أمره أنّ مهارته في خلع الأضراس لم تكن تتبدّى إلا بعد أن يكرع عدة أقذاح من العرق ، مصحوبةً بلقيماتٍ من السمك ،

وعندئذٍ يخلع السنُّ أو الضُّرسُ بِسُدَّةٍ واحدة لا تدع للمريض مجالاً لأن
يُحسِّن بالألم !



ذات يوم جاءه قَرَوِيٌّ طاعنٌ في السنِّ ، يشكو له وجعاً في سنٍّ^١
وطلب خلعه . وبدا أنَّ كارنيك كان قد زاد في الشرب في ذلك اليوم عن
حدِّه المألوف ... ودون قصد منه خلع سنّاً سليماً من أسنان الرجل قبل أن
يخلع له السنَّ المنخور !

لم ينتبه المريض إلى ذلك . بل شكره كلُّ الشكر على خفّة يده التي
جعلته لا يحس بالألم ، وودَّعه وأنصرف .

ولكنه نظر ، بعد أن زايله الألم ، في المرآة إلى أعماق فمه ، فرأى
فجوةً في مكان السنِّ السليم ، فاستبدَّ به الغضب ، وسارع إلى طبيب
الأسنان — سائق السيارة السابق — كارنيك ، مُهدداً مُتَوَعِّداً . ولم
يُغضب وعيُّه كارنيك ، الذي تلقاه بهدوء ، وجعل يشرح له الأمر
قائلاً .

— يا صديقي ! وجود سنٍّ سليم في فمك ، وأنت في هذا العمر ،
يضرُّ بمعدتك ، وقد يؤدي بك إلى الموت . لذلك يُحسِّن بك أن تتجنَّب
أكل اللحم والمأكولات القاسية ، فتعيش عمراً مديداً بإذن الله !

أفجم الرجل ، ولم يجد قولاً يتعلَّل به في المجادلة ، التي أيقن أنه لن
يخرج منها منتصراً لا سيما مع رجل مثل كارنيك ، السائق السابق وطبيب
الأسنان الحالي . فتركه ، ومضى مُطأطئاً الرأس ، يلعنه في سرِّه ألف
لعنة .

في حديثنا عن طبيب الأسنان كارنيك ، لا يمكننا إغفال هذه القصة .

ذات صباح ذهب أبي إليه شاحِبَ الوجه متألماً . وبعد التَّحِيَّة ، والسُّؤال عن الحال ، قال أبي :

— أنظرْ إلى عينيَّ ووجهي ، يا صديقي كارنيك ! لم يَغْمَضْ لي جفن طوال الليل من وجع ضرسِي . آخِطُعه لي بسرعة وخِفة يد ، إذا تَكَرَّمت ، عسى أن أَتَخَلَّصَ تَمَّ أعاني من الألم !

قال كارنيك ، بعدما آبَسم وأطلق بعض الشَّتائم المجانيَّة :

— مهلاً ، يا جورج . اجلس . ولنشرب كأساً من العَرَق معاً ، فَإِنَّه مفيد في وجعٍ مثل وجعك . ونحن لم نلتقِ منذ مدة . هاتِ ما عندك من أخبار . تكلم ، فَضِيفُضْ . علمتُ أنَّك اخترعتَ نوعاً جديداً من الـ « د.د.ت. » ، فتعاليتُ وشمختُ بأنفك ، وأنت لَمَّا تُحْطَ بِلِقلب « دكتور » بعد !

أجاب أبي :

— أجل ، يا كارنيك ! إلا أنَّ اختراعي لم يُكْتَبْ له النجاح مع الأسف . فبدلاً من أن يقتل البعوض كدت أقتل به امرأة ، ولولا أنها تملك قلباً قوياً لما آسَرَدَتْ عافيتها وتمكَّنت من الوقوف على قدميها . لكنَّ نفع اختراعي تأكَّد في ما تلقَّته الثعالب التي تختطف الدجاج : لقد أفرغت زجاجةً منه في جُحُورٍ عديدها فهلكت في الحال !

قال كارنيك :

— أحسنتُ صُنعاً ، يا جورج ! أنت نفعْتَ بلدتك .

وأخذ جُرعةً من العرق ، تَضمضُ بها غاسلاً أسنانه الذهبية .

ردّ أبي :

— أجل ! إنّ المرء إنّ لم يهتمّ بتطوير بلدته ، والعمل على نفع أهلها ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم ، يكون عدوّاً لها ! (ثم قال مُستدركاً) ولكن ... إلى أين أوصلتني بالحديث ؟! هيّا أخلعُ ضرسِي وخلصني من مشكلته ، فإنّي قلقٌ جداً .

لكن كارنيك قال :

— أصبر ، يا جورج ! لسوف نُعالجه . أنتظر . لم تشرب شيئاً بعد . آحكِ لي المزيد . حدّثني عن الحرب العالميّة الثّانية ! من ذا الذي رَبحَ فيها ، ومن خسر ؟ ماذا يفعل أرْمُنّا ؟ مَنْ الذي قَتَلنا ؟ من كان يريد إبادتنا ؟ ما هي براجمهم المستقبلية ؟ حدّثني عن الرّوح الانتقاميّة عند الأرمنيّ ؟ وعن التّكاتف في العمل ، من وجهة نظرك ؟ وماذا يترتّب على كلّ أرمنيّ أن يفعل ؟ قلّ ، تكلم ... فأنت عارف بهذه الأمور . لقد سمعتُ أنك تسهر ، حتى ساعة من الليل ، وأنت تقرأ في الكتب ، حتى تأتّي لك أن تُثَقّف نفسك ... ولم ترض بأن تستسلم إلى العرق والتركيّة !

قال أبي مُمتعضاً :

— كارنيك ، عزيزي ! ليس هذا وقتاً ملائماً لهذه الأحاديث ! لسوف أزورك ، يوماً ، وأنا في تمام صحّتي وعافيتي ، فأحدّثك بكل ما تريد ... أما الآن ، فإنّي مشغول بما هو أهم : وجع ضرسِي . هيّا خلصني منه ، أرجوك !

وأخيراً ، كرع كارنيك ثُمالة كأسه دفعةً واحدة ، وأهاب بأبي :

— هَيَّا أَفْتَحْ فَمَكَ حَتَّى نَفْحَصَ هَذَا الضَّرْسَ !

وما كاد يلقي نظرة على الضرس المنخور ، والكمّاشة في يده ، حتى تلاحقت منه الشّتائم ، ثُمَّ قَالَ وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِ الْقَلَقُ :

— مَا هَذَا الضَّرْسَ ، يَا جُورْجُ ! أَهْوَ سَنِّ جُورْجُ ، أَمْ سَنِّ حَمَارٌ ؟
أَلَا قُلْ لِي : هَلْ هُوَ سَنِّ أَدَمِيّ ، أَمْ سَنِّ عَفْرِيّتْ ؟ أَرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ !

ومع ما كَانَ يُعَانِي أَبِي مِنَ الْوَجَعِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَفْقَدْ رُوحَ النُّكْتَةِ ، قَالَ :

— بَحْدٌ عَلَمِي ، يَا كَارْنِيكَ ، أَيْ وَلِدْتُ أَدَمِيًّا ! أَمَا بِالنِّسْبَةِ
لَضَرْسِي ، فَإِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحَدِّدَ نَوْعَ الْحَيْوَانِ الَّذِي يُشَبِّهُ أَسْنَانَهُ !
فَأَلْقَى كَارْنِيكَ بِالْكَمَّاشَةِ جَانِبًا ، وَقَالَ :

— لَيْسَ هَذَا مِنْ عَمَلِي ، يَا جُورْجُ . مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ الْآلَانَ ،
وَتَسَافِرَ إِلَى يَبْرُوتَ ، فِي هَذَا الْيَوْمِ نَفْسَهُ ، لَتَخْلَعَ ضَرْسَكَ فِي عَمَلِيَّةٍ
جَرَاحِيَّةٍ ، لَا مَفَرَّ مِنْ ذَلِكَ .

وههنا أَفْرَغَ أَبِي كَأْسَهُ فِي جَوْفِهِ ، وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ كَارْنِيكَ مَفْكَرًا .



وَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى يَبْرُوتَ .

وَهَنَّاكَ كَادَ الطَّبِيبُ يَقْلَعُ لَهُ عَيْنَهُ ، وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَخْلَعَ لَهُ ضَرْسَهُ !!

ابن أخت وزير خارجية فرنسا في فندقنا

أراد أبي ، يوماً ، أن يُسافر إلى اللاذقية لقضاء بعض الأعمال فيها .
فكان أن آحتلّ مقعداً بجوار سائق الباص « هرانت » .

في الطريق ، عند نقطة الحدود السورية التركية ، توقف السائق أماًلاً
في أن يحمل معه رُكّاباً يقدّمون من تركيا أو أوروبا . ولم يحبّ أمله ،
فقد كان هناك بضعة عشر شاباً ، بعيون زُرْق وشعور صُفْر ، ينتظرون .

صعدوا إلى الباص ، فاحتفظ بهم الممرّ ، وجلس أحدهم بالمقعد
الشّاغر بجوار أبي ، بعد أن بادر فألقى عليه التّحية بقوله « بون جور » ،
فأنضح أنهم فرنسيّون !

وقد ردّ أبي عليه بتلك الكلمة الفرنسيّة التي كان قد تعلّمها من
طبّاخنا اليونانيّ : « بون جور » ... وتمنّى لو يتحدّث إليه ، لولا أن خائفته
اللغة ، فأعتصم بالصّمت على مضض .

ولكنّ الشابّ الفرنسيّ حلّ المشكلة ، عندما أخذ يتكلّم مع أبي بلغةٍ

عربية سِلْسَة ، حول السّفر ، والطّقس ... وأنطلق أبي يُحدّثه عن أمريكا الجنوبيّة ، وعن أنه قضى ليلةً في باريس تعرّف فيها على حسناء فرنسيّة ، ولكنها أنصرفت عنه بعد أن عَجَزَتْ عن التّفاهم معه ! فضحك الفرنسيّ واحتضن أبي بمودّة .

وكان الباص يتزوّد ، على طول الطّريق ، بالركّاب . كان هرائت يتوقّف عند كل عابر سبيل ويلتقطه ، والركّاب يقفون في الممرّ كالمصلوبين ...



ثم إنّ الباص وصل إلى مخفر الدّرك عند نقطة تسمى « نبع المرّ » . وصعد من هناك دَرَكيّ وزوجته . وكان على الزوجين أن يقفا في الممرّ مصلوبين كالأخرين .

لكنّ الشابّ الفرنسيّ ، بحكم العادة في بلده واحترام الناس الرّائد هناك للجنس اللطيف ، قام من مقعده ودعا السيّدة إلى الجلوس مكانه .

ورأى أبي ، وقد اتّخذت الزّوجة مكانها بجواره ، أنه لا يليق به أن يجلس إلى جانب امرأة على حين يظلّ زوجها واقفا . فقام بدوره ، ودعا الدَرَكيّ للجلوس مكانه ، ولم ينتظر هذا تكرار الدّعوة ، بل آنقضّ على المقعد جالسا ، دون أن يُفوه بكلمة شكر صغيرة ، خلافاً لما فعلت زوجته التي شكرت الفرنسيّ على أُرِيحِيّته ... وزاد على ذلك بأن قال لزوجته :

— أنظري إلى هذا الفرنسيّ ما أغباه ! يتنازل لنا عن مقعده !

قال ذلك دون أن يخطر في باله أن هذا الفرنسي يُجيد العربية كواحدٍ
من أبنائها !

عندما سمع الفرنسي ذلك ما كان منه إلا أن أمسك بالدركي وآنهال
عليه صفعاً .

وآحتدم الشجار داخل الباص ... حتى اضطُرَّ السائق هرائت
- الذي لم يكن من عادته أن يهتم بما يحدث وراءه - أن يتوقف على
جانب الطريق ، ونزل الركاب أملاً في أن تُحل المشكلة .

وأخيراً نطق الفرنسي بالعربية قائلاً للدركي :

— بعد اليوم ، لا تقل لأحدٍ غيباً !

فبُهِتَ الدركي عندما سمع الرجل يتحدث بالعربية ، وأسقط في
يده .

لكن ما لبث ، بعد أن استرد أنفاسه ، أن أخذ يُهدّد الفرنسي ، وهو
يمسح عرقه ، ويقول :

— سأريك ، عندما نصل إلى اللاذقية ! سوف تقضي إجازتك في
السّجن لتُهْجَمَ على آبن حكومة !

وترأى لأبي أن يتدخل لحل المشكلة ، فأخذ الدركي من ذراعه ،
ومشى به بعيداً ، وأنشأ يقول :

— يا جاويش ! أنت لا تعرف من يكون هذا الرجل ! أما أنا فأعرفه
جيداً . لقد نزل في فندقنا بكسب في العام الماضي ، وهو آبن أخت وزير
خارجية فرنسا ! إنه إذا ما أبرق إلى خاله وزير خارجية فرنسا ، وأخبره بما

قلته أنت ، فإن الوزير سيهتف من باريس إلى وزير خارجية بلدنا ، ويهتف
هَذَا إلى وزير داخليتنا ، الذي سيهتف بالأمر كثيراً ، ويرى فيه ضرراً
للسياحة في البلاد ، وإساءة يُمارسها رجلٌ من الدرك ، فيعود ذلك وبالأمر
عليك ، فقد تُنقل من هذه المنطقة إلى أخرى نائية ، وقد تُصَرَف من
الخدمة ... لذلك أنصحك بأن تكفّ عن التهديد ، وأن تُعالج الأمر
بالحسنى ، وأن تعتذر له ، خصوصاً وأنت أنت البادئ بالإساءة بعدما
أكرمك الرجل حين تنازل عن المقعد لزوجتك !

فأقنع الدركي بما قال أبي ، واعتذر للشاب الفرنسي .

وتابع الباص طريقه إلى اللاذقية .

المطور سر كيس بولاديان

I

سَنِمَ جَارُنَا « سر كيس بولاديان » من الكَسَاد في عمله ، وضجر من الفئران التي قرضت في دكانه البضاعة كُلُّهَا وأخفق في القضاء عليها ... وراح يُعلن ، أمام أصحابه ، عن عزمه على تغيير عمله إلى آخر يَسُدُّ به رَمَقَهُ ، ولكنه لم يُصادف بينهم مَنْ يجود عليه بالنُصح ويدلّه على عملٍ بديل ، فأثر أن يعتصم نهاره بالبيت مُلَبِّياً رَغَابَتِ زوجته في ما تطلبه منه من قضاء حاجات البيت .

وأما زوجته ، وقد حزنَتْ على ما يُعاني زوجها من بَطَالَةٍ ، فإنها لم تجِدْ ما تُسَرِّي به عنه ، وهي التي يتلَطَّيْ قلبُها غضباً ، سوى الشجار وإثارة النُكْد .

وتمرّ الأيام ... وتلوح تباشيرُ الصَّيف الذي يحمل الخير إلى البلدة .

وكان سر كيس قد هجر الدَّكان ، ولم يخطرْ له أن يُلقِي عليها نظرةً ، ليقينه من أنَّ الفئران قد أَثَّتْ على كُلِّ ما فيها ، حتى رُفِفَها الحشبيَّة .

II

يُحْلُول الصَّبِيف ، أَرَاد سَرَكِيس ، يَوْمًا ، أَنْ يَتَنَسَّم الهَوَاءَ بَعِيدًا عَنِ
الْبَيْتِ . فَخَرَجَ إِلَى السَّاحَةِ ، حَيْثُ مَقْهَى الْبَلَدَةِ . وَهَنَاكَ رَأَى جَمَاعَةً مِنْ
السُّيَّاحِ الْأُورُوبِيِّينَ يُصَوِّرُونَ مَا تَقَعُ أَعْيُنُهُمْ عَلَيْهِ بِآلَاتِ تَصْوِيرٍ حَدِيثَةٍ
تَهْرُ الْأَبْصَارَ .

فَوَقَفَ فِي مَكَانِهِ مَذْهُولًا ، يَفْرِكُ عَيْنَيْهِ ، مُتَطَلِّعًا بِلَهْفَةٍ إِلَى هَذِهِ
الْآلَاتِ ، وَهِيَ تَلْتَقِطُ الصُّوَرَ : جُجْجُ ، جُجْجُ ... بِسَرْعَةٍ مُتَنَاهِيَةٍ ، وَتَبْرُقُ
فِي كُلِّ لَقْطَةٍ ، فَيُخَيِّلُ لِلنَّاظِرِ أَنَّ بَرَقًا قَدْ أَتَمَعَ فِي الْمَكَانِ !

هَهُنَا أَشْرَقَتْ فِي ذَهْنِهِ فِكْرَةٌ ، تَغْلَغَلَتْ حَتَّى أَعْمَاقِ نَفْسِهِ ، وَجَعَلَتْهُ
يُرَدِّدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَجَدْتُهَا : صِنْعَةُ
التَّصْوِيرِ ! » .

وَحَمَلَتْهُ هَذِهِ الصَّنِيعَةُ ، التَّنْظِيفَةُ الْمُدْرَّةُ لِلرَّيْحِ ، مَعَ الْأَحْلَامِ إِلَى
جَنَّةِ الْخُلْدِ . وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَدْخُلَ الْمَقْهَى ، آرْتَدَّ عَلَى أَعْقَابِهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى
الْبَيْتِ ، لِيَحْمِلَ إِلَى زَوْجَتِهِ الْبُشْرَى بِعَمَلٍ جَدِيدٍ .

فَلَمَّا أَسْتَمَعَتْ « أَوْصَانًا » إِلَى حَدِيثِهِ ، شَخَّصَتْ بِنَظَرِهَا إِلَى
بَعِيدٍ ، ثُمَّ صَاحَتْ غَاضِبَةً :

— تَبَّأُ لَكَ ! أَيْنَ أَنْتَ مِنْ فَنِّ التَّصْوِيرِ ؟ إِنْ بَدَنِي يَقْشَعِرُّ تَمَّا أَسْمَعُ !
مَنْ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ ؟ أَسْمَعْنِي جَيِّدًا ، يَا سَرَكِيسُ : أَذْهَبُ
غَدًا ، وَأَقْتَحُ دُكَّانَكَ ، وَعُدُّ إِلَى عَمَلِكَ الْمَعْهُودِ . الرِّزْقُ عَلَى اللَّهِ .
مَا يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْنَا يَكْفِينَا . لَا تَتَدَفَّعْ وَرَاءَ أَفْكَارِ جَنُونِيَّةٍ . أَوْلَادُنَا فِي
حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُعِيلُهُمْ .

قال سر كيس وهو يحك رأسه مُفكراً :

— لا تهتمّي ، يا امرأة ! لسوف أكون المصور الوحيد في كَسَب ،
وسيقى آسمي خالداً . أما الدكان فلا تذكرها لي ، فإنها مملوءة بسموم
القرآن .

قالت أوصانّا :

— لا ، يا سر كيس ، لا ! لا تُعقد أماً على وجوه الناس
المتغربين ، وإلا حطمت قلبك وكسرت خاطرك !

غير أن سر كيس لم يُعرّ اهتماماً لبلاغة زوجته ، لا ولم يشأ أن يُصغي
إليها . وصحّ عزّمه على أن يُسافر في غده إلى دمشق . ودخل غرفة النوم
ليرتب حوائج السفر ، وأمراته من وراءه تصيح ، جاهدة أن تمنعه ،
قائلة ، بلهجة أرمنية كَسبيّة ممزوجة بالتركية ، ما معناه :

— ويلك ، يا سر كيس ! إياك أن تذهب ، فتندم ولن ينفعك
ندمك !

ولكن آلات التصوير ، التي أخذت عقله ، جعلته لا يتخيّل غيرها
ولا يسمع غير صوتها : جُجْجْ ، جُجْجْ ... ولم يجب بكلمة على اعتراضات
آمراته ، وهَجَجَ — بعد أن رتب حقيبة السفر — في سريره ، وسَحَبَ
اللحاف إلى ما فوق رأسه ، تهرباً من مُضايفات زوجته وأستعجالاً
للصباح !

III

غاب سر كيس بولاديان ، عن كَسَب أياماً ثلاثة أو أربعة ، عاد

بعدها ومعه صندوقٌ يحتوي على آلة للتصوير ، حديثة ، أثارَت في نفوس الناس استغراباً ، ونشرت البلبله في طُرقات البلده ، فكان كلٌّ من تقع عينه على الصندوق يستشعر الخوف ، ويتعجب ، قبل أن يُبادر إلى الاستفهام عما في هذا الصندوق العجيب !؟

وسركيس يُجيبهم ضاحكاً :

— لا تخافوا ، يا أصحابي ! هذا ليس تابوتاً ! إنه آلة تصوير ، هي التذير بيوم القيامة والبعث من جديد . إنها بذرة الطَّيِّعة . هي ، بالاختصار ، مُتَحَفُ الذِّكْرِيَّاتِ الخالدة !

وانتشر الخبر في كلِّ مكان في البلده ، وتسرب إلى القرى المجاورة . سركيس بولاديان يضع حجر الأساس لمهنة التصوير الضوئي في كَسْب . الخبر صحيح وليس مزاحاً . صاحب تلك الدُّكان ، التي تصُول فيها الفتران ، أصبح مُصَوِّراً !

وكلمة مُصَوِّر باللغة الأرمنيّة هي « لوسانغاريتش » ، وكلمة منير بالأرمنيّة « لوسافوريتش » ، والفرق بين اللفظين بسيط جداً ، ممّا حمل على الظنّ بأن سركيس الدُّكُنْجِي قد صار « مُنيراً » ، أي مُبَشِّراً دينياً ...

وكان يرَدُّ على من يستفسره في ذلك :

— لا فرق بين الإثنين ، يا أصدقائي . فمن دون المنير لا يتمّ التصوير . وأنا بآخذذي التصوير مهنةً ، أنشد الخير لبلدتي ، ولأبنائها ، فأخلد ذِكرهم . إنّي أجمع بين المصوِّر والمبشِّر !

IV

وفي يومٍ غائمٍ أستفتح سرّكيس عمله بتصوير جاره وقرينه « أنترانيك بولاديان ». وبعد يومين من العمل الشاقّ ظهرت ، على قطعة ورق ، ملامح رأسٍ في غابة ، ولكنها ملامح غير واضحة ، ولا تدلّ على صاحبها . ولكن لم يكن بدّ من أن تُسلّم الصّورة إلى صاحبها . فلما رآها أنترانيك صاح ، وقد تجهم وجهه أكثر من تجهم المعتاد :

— إنّي أذكر جيّداً ، يا سرّكيس ، أنّي لحظة تصوّرتُ لم أكن نائماً ، بل جالسا على كرسيّك مثل جنديٍ مُعوار . وأرى أنّك ، في الصّورة ، نوّمتني ، بل خنّفتني ، ولَفَفْتَنِي بوشاح أسود ! التصوير فنّ وذوق ، فلم كلّ هذا السّواد ؟ أين وُعودُك بالأزدهار ، وبالخلود ، يا سرّكيس ؟

أجاب سرّكيس :

— طَوّل بالك ! لا تصرّخ هكذا ، ولا تنزعج كلّ هذا الانزعاج ! لا تكن مُتشتّتا . الذّنب ليس ذنبي ، بل ذنب الطّقس ! ثم أنت جاري وقريني ، وتغضب منّي إلى هذا الحدّ ، فماذا يفعل الغريب ؟ هل يتشاجر معي ؟ إنّ لم نتحمّل أخطاء بعضنا بعضاً ، ونُسُدّ التّواقص ، فمن نراه يتحمّلها ؟ أتريد أن تُضجّك الأغراب علينا ؟ أذهب اليوم ، وعُدّ إليّ في يومٍ مُشمس ، يا آبن العمّ ، فأصورك ثانية ، وعندئذ ستُغيّر رأيك في ولا شكّ . لا تنس أن يكون اليوم مُشمساً راقفاً . ولسوف ترى ما معني كلمة صورة ... صورة تجعل كلّ من تجاوزت الأربعين من عمرها تقع في جبّك !

فلَمَّا سمعت أوصانًا آخر كلمات زوجها ، آنقضت عليه مثل
عُقَاب ، قائلة :

— أنت ابتدعت مهنةً جديدةً فقبلناها ! ولكن ما هذه الأقوال ،
التي عُذت من العاصمة ، تُتحفنا بها ؟ تَبَّأ لك ولما جئتنا به . أتقع في
الحب بعد ستك هذه ؟ الموت أولى بك . تَبَّأ لك . الرّماذ في عينيك !

فصاح بها سر كيس :

— كفى ، يا امرأة ! أنت تجاوزت الحد . أفهمي ما أقول أولاً ، ثم
تكلمي . لهذا طبعك معشر النساء : أنتن تنهرين من الحب في أوانه ، ثم
تبحن عنه بعد فوات الآوان ! (ثم أخذ يتفلسف) هل تظنين أن هناك
فناناً دون حب ؟ هل يتسلق أحدهم شجرةً مليئةً بالثمار ، ولا يأكل
منها ثمرة ؟ هل يمكن للفنان أن يحسّ دون أن ينظر بعينه ؟ ثم هل من
اللياقة ، يا امرأة ، أن ثواجهي امرأةً ولا تُحدثه عن الفن ، وعن
الحب ؟

قالت أوصانًا ، وهي تتوجّه نحو المطبخ :

— وأين كانت عباراتك هذه قبل اليوم ، يا سر كيس ؟

أما أنترانيك ، فبعد أن أستمع إلى حوار الزوجين ، وعَد بالعودة مرةً
أخرى .

V

أخذ الفنان المصوّر سر كيس بولاديان يتفألّى في عمله .

ولكن كانت وجوه القرويين الذين يُصوّرهم تظهر مرةً مُشرقةً
مُنيرةً ، وأخرى قائمةً مُعتمةً ... فيخرج من عنده ذو الصّورة المُشرقة

ضاحكاً ، ويعود إلى بيته فحوراً بصورته ! ويُغادره ذو الصورة القائمة
مرغياً مزبداً ، مُزعجاً مُغتمّاً . وكثيراً ما عادوا إليه وقد أنكروا صورهم
التي لا تبين فيها ملامحهم ، أملاً في ترميم ما يُمكن ترميمه ، أو إعادة
التصوير مرة أخرى .

— ويكون ردُّ سركيس عليهم في كل مرة :

— قلتُ كثيراً ، وأكرّر الآن : إن الوجه هو نفسه والملاحح ذاتها .
ولكنّ الصورة هي التي تتغيّر ، وحسب الظروف المحيطة بالتصوّر !
ولا يمنع ذلك من أن يتصوّر أحدكم في كلّ وقت : اليوم ، غداً ، بعد
غد ... فتظهر الصورة مثلّ الوجه الذي وقف أمام العدسة . كم قلتُ
لكم هذا ! ولكن يبدو أنّي أنا الذي أقول وأنا الذي يسمع ، ولا أحد
منكم يسمعي . إنّني أقول لكم : تعالوا إليّ للتصوير في يومٍ مُشمس !
وأنتم لا تأتونني إلّا في الأيام الغائمة والضبابيّة . فإذا امتنعتُ عن تصويركم
غضبتُم ! فإن استجبتُ فصوّرتكم وظهّرت الصورة قائمة غضبتُم أيضاً !
ماذا أقول لأصحاب النفوس المريضة اللا مبالية ؟ .. أكرّر ، يا إخوتي :
الوجوه لا تتغيّر ، وفنّ التصوير ثانويّ ... المهمّ أن تأتوني في الوقت
المناسب !

VI

وإذا كانت أخطاء سركيس بولاديان وسقطاته ظلّت طيّ الخفاء ،
فإنّها لا يمكن أن تخفى على أبي ، قويّ الملاحظة المرهف السمع .

ففي صباح يوم مُشرق ، توجّه أبي إلى المصور سركيس ، للتصوير

والزراح ! وعانق سر كيس أبي عناقاً حاراً ، ذلك أنه لم يلتقِ به منذ مدة ، ودعاه إلى الدُّخول . وأقبلت أوصاناً للترحيب بأبي بعد طويل غياب ، وقدمت له السكاكر والحلويات .

وأخذ أبي ، في هذا الاستقبال الحار ، يُلقي ببعض النكات ليزيد الجوَّ مَرَحاً .

إلى أن حانت ساعة التصوير !

أقترح سر كيس على أبي أن يجلس بوضع مُعَيَّن ، على كرسي ، أمام العدسة . فاستجاب أبي ، وجلس كالممثل يُنفذ توجيهات المخرج .

وينشغل المصوِّر بآلته حيناً ، فيغوص تحت الستارة السوداء ويغيب ... فيبتسم أبي ، وتتسع ابتسامته ، ولكن ما من ملاحظٍ أو مُشير .

وفجأة يخرج سر كيس من الصندوق ، هاتفاً :

— جيد جداً ، يا جورج ! أنت محظوظ ، فالشمس تسطع ، وسوف تحظى بصورة رائعة صافية كالمرآة !

ولا يردُّ أبي ، ويكتفي بالابتسام . ويعود سر كيس إلى العُوص في صندوقه .

وفجأة ظهرت في السماء سحابة كبيرة داكنة ، حجبَت الشمس فأظلمت الدنيا ، وهبَّت ريحٌ باردةٌ كالسهم اخترقت الجوَّ ... همَّ أبي بأن يقول شيئاً ، ولكن طقَّة : جُجْجْ ، جُجْجْ ، أُلْهَتْ الموضوع . وأخرج سر كيس رأسه من الصندوق ، مثلما أخرجت الشمس رأسها من بين السحاب .

قال سركيس :

— جورج ! ستحظى بأروع صورة . تعالَ بعد يومين فاستلمها .
 وذهب أبي بعد يومين ... فماذا رأى ؟ كانت في الصورة مناظرٌ
 طبيعيّة بدا فيها رأسُ صخرة عاتية !

هتف أبي :

— ماذا فعلت ، يا سركيس ، يا جاري العزيز ؟ لقد ملأت المنظر
 بشعرٍ نسائي ، ماذا يفعل رأسي بين هذه الصُخور ؟ أمّا أنفي الأرمني فإنه
 لا يُشبه حتى الأنف العربي . وما هذا الدُّبُول في العينين ، والسَّواد في
 الحاجبين ، وفقداني إحدى أُذُنَيَّ ؟! نشرت عنقي ورميته ! هذا لا يجوز
 أبداً ! أنا غيرُ راضٍ . فلا تجلس من جديد لتُصوّرني مرّةً أخرى ، لعلَّ
 الصُّورة تأتي أفضل من هذه !

فقال سركيس بلهجةٍ آجتهد أن تكون مُقنعة :

— ماذا تقول ، يا جورج ؟ حاول أن تنظر إلى وجهك برؤيةٍ فنان ،
 وعندئذ تنال إعجابك بالتأكيد . إنني أعرفك ذوّاقة ، وما أحب أن أسمع
 منك هذا الذي تقول . من كلّ وجداني أقول لك إنّ صورتك هذه أفضلُ
 صورةٍ ألتقطتها حتى الآن .

قال أبي بعناد :

— لا ، لا . لم تعجبني . سأجلس مرّةً أخرى لتُصوّرني . ولكن
 أرجوك ، صوّرني هذه المرّة بأذنين ، وحافظ على أرمنيّة أنفي ، ولا تُسوّد
 ما في حاجبي من أحمرار . أعدّ لعيني نظرة الصُّقر بكلّ جدّتها

وَحَيَوْنَتَهَا ... وَأَخِيرًا ، يَا سَرَكِيسَ ، لَا تَنْشُرْ عُنْقِي ، فَالرَّأْسُ بِلَا عُنُقٍ
كَالْحَوْضُ بِلَا صَنْبُورٍ !

أَجَابَ سَرَكِيسَ مُمْتَعِضًا :

— حَسَنَ ، أَذْهَبُ الْآنَ ، وَعَدْتُ إِلَيْكَ فِي يَوْمٍ آخَرَ ، لِأُصَوِّرَكَ حَسَبَ
مَا تُرِيدُ .

فَسَأَلَهُ أَبِي :

— وَلِمَ ؟ أَلَا يُمَكِّنُ تَصْوِيرِي الْآنَ ؟

فِيصْرَخُ سَرَكِيسَ :

— هَلْ جُنُنْتُ ، يَا جُورْجَ ؟ أَلَيْسَ تَصَوِّرُ فِي مِثْلِ هَذَا الطَّقْسِ ،
بِمَا فِيهِ مِنْ رِيَّاحٍ وَضَبَابٍ !؟

VII

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ جَاءَ إِلَى أَبِي قُرُوبٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي قَرَادَاشَ ، وَكَانَ
مُحِبًّا لِلْمَزَاحِ ، قَالَ :

— أَنْظُرْ ، يَا جُورْجَ ، إِلَى بَدَعِ هَذَا الْفَتَّانِ سَرَكِيسَ ! لَقَدْ صَوَّرَنِي
أَمْسَ ، فَانْظُرْ ، كَيْفَ تَجِدُ وَجْهِي !

فَسَأَلَهُ أَبِي :

— وَكَيْفَ كَانَ الْجَوْ يَوْمَ تَصَوَّرْتَ ؟

أَجَابَ الْقَارَادَاشِي :

— غَائِمًا شَدِيدَ الرِّيَّاحِ !

فأجال أبي طَرْفَه في الصّورة ، ثمّ قال :

— لا ينفصك سوى قرّنين ، يا صاحبي ، حتى تصير شيطاناً !!

VIII

ويكتسب سرّكيس ، الفنّانُ المصوّر ، بعد مدّة من الزّمن ، شهرةً في الوَسَط الذي يعيش فيه ، وتُتّسع شهرته حتى تجذب السيّدات والآنسات اللواتي غلّتون من زُينه ... تما أضطرّه إلى أن يزاول العمل نهاراً وليلاً دون أن يتسرّب إليه التعب أو الملل .

ونظر ، في يومٍ ، إلى زوجته ، فراق له حُسْنُها وجمالها ، وأبدى رغبته في تصويرها حارّةً ، لتبقى الصّورة لهما ذكرى خالدةً شاهدةً على حبّهما العميق . ولم توافقه أوصافاً أولَ الأمر ، لكنّها استجابت أخيراً لمعسول كلامه ، ووعده بأن تنزل عند رغبته يوماً .

وجاء يومٌ ربيعيّ بديع ، أطالت فيه الوقوف أمام المرأة ، تزيّن ، ثم زَغَرَدَ لسائها بشتيمة . ومَشَتْ كنييلة من التّيبلات ، وجلست على كرسيّ يبعد ثلاثة أمتار ، أو أربعة ، عن آلة التّصوير العظيمة ، مستسلمةً ليدي زوجها الفنّان البارِع !

وأحبّ أبي أن يستفيد من هذا اليوم الرّبيعيّ عيّه ، فتوجّه إلى المصوّر ... وهناك رأى استعارَ حرارة الحبّ بين الزوجين ، فقال متحمّساً :

— يا لَسْعَدِكَا ! تُحسِنان استغلالَ الطّبيعة ، فتعاطفان في ظلّها ويتمنّى كلّ منكما الخير للآخر ! فليباركُكما الله ، وليكنْ ثالثكما في كلّ أموركما ، وليُثبِتْ أقدامكما .

قالت السيِّدة أوصائاً :

— يليق بك ، يا أخ جورج ، أن تكون قسيساً ، بدلاً من أن تُضيِّع
عمرَكَ في التجارة !

فأجاب أبي :

— أنا لا أميل إلى الكهنوتية . ولو أن كلَّ مَنْ عَلِمَ شيئاً أمسى
قسيساً ، لما بقي للقساوسة أحدٌ يَعْظُونَهُ !

وساد ، بعد هذا الحوار ، سكوتٌ هادئٌ ، فبدأ وكأنَّ القلوبَ
تنبضُ ، في أحضان هذه الطبيعة الجميلة ، بحوريةٍ وحنان ، فكلَّ ذرَّةٍ
تصبو إلى خيرٍ منها ، تنبسم وتحيي .

ارتفع ، فجأةً ، صوتُ الفنان سركيس ، يشقُّ سكوتَ الطبيعة ،
بنبرةٍ رقيقة ، خارجاً من ظلماتِ عالمه ، ليشدَّ انتباه زوجته ويطلب منها
الابتسام ... فتبتسم أوصائاً قليلاً .

يصيح سركيس :

— آبتسمي أكثر فأكثر ، يا أوصائاً .

وتبذل المرأةُ جهدها في أن تبتسم على نحوٍ ما يُرضيه ... فكانت
آبتساماً مُتكلفةً ، أشبه بإشراقِ شمسٍ من وراء الغيوم . أجل ، آبتسامة
مُصطنعة ، كشفت عن أسنانها المُسوَّدة .

وأما أبي ، فكان يُغمغم تحت أنفه : ما أذنالك من الموت ، أيها
البسمة المُصطنعة ! جافةٌ موحشة كالقُبور ، لا يُطاق النَّظرُ إليك ، لولا
زقزقةُ العصافير تروح وتجيء فتشكِّل ملاعبَ الأمواج الفَوَّاحة ، وأنشودةَ
آيار الصِّدّاحة ، بسمةَ الربيع الحارّة الصّادقة !! ...

وينتهي كل شيء : جُخ ، جُخ !

ويكتنف الهدوء كل شيء ، وتكفّ القلوب عن الخفقان ، وينترع
سركيس رأسه الكالخ من عالمه ، ويُرسل من عينيه الزرقاوين الحانيتين
نظراتٍ إلى زوجته وكأنه يقول لها : قد أنتهينا ، يا امرأة ! فماذا تنتظرين ؟
وثنيته أوصافاً ، وكأنها تستيقظ من حلم جميل . فتنهض وتتوجه إلى
المطبخ بصحبة ألف سعة وسعة ، لتحضّر القهوة .

ويتصوّر أبي في يومه هذا ثانية . ويتسلم الصورة بعد يومين ، فرأى
ما لم يصدّق : بدا وجهه في الصورة كامل الأوصاف ، لا ينقصه سوى
النطق ! فأطال النظر إلى الصورة مندهشاً مبهوئاً ، ثم هتف مسروراً :

— ما كنت أعرف أنك فتان إلى هذا الحد ! أهشك من كل قلبي .
إني على يقين من أنك ستفوق ، بعد سنوات قليلة ، بفنك على
الأوروبيين (ويضيف وهو يدسّ الصورة في جيبه) في هذه المرة أصبحنا
نُشبه الآدميين !

فردّ سركيس :

— وهل تستحي أن تقول : « أصبحت ، الآن ، أشبه
الأرمني ! » ؟

IX

وجاءت إلى سركيس ، يوماً ، امرأة قد توشح وجهها بالحزن ،
ترافقها ابنتها الصغيرة ، للتصوير . فاستقبل هذه الزبونة ، غير المعروفة ،
بأحترام زائد . وبعد أن عاهد إلى أمراته أوصافاً برعاية الطفلة ، دعا

السيدة إلى الجلوس على الكرسي المواجه لآلة التصوير . وقبل أن يغوص في عالمه المظلم ، وينتقل إلى الطقطة المعهودة : جُحْ ، جُحْ ، طلب من المرأة الابتسام . لكن وجه المرأة الحزون المهموم لم يتسم ، بل لم يكن يُريد الابتسام ، فقال :

— آبتسمي ، يا سيدي ! آبتسمي ولو آبتسامة مُصطنعة دقيقة واحدة فقط ، فمن دون الابتسام لا تنجح صورتك .

لكن هذه الزبونة أصرت على رفض الابتسام ... وأخيراً أخرج سركيس رأسه من الصندوق ، وسأل المرأة في لهجة لا تخلو من قلق :

— ولكن ، لماذا لا تُريدين الابتسام ، يا سيدي ؟ ما السبب في حزنك هذا كله ، ويأسك ؟

أجابت المرأة :

— لا بأس ، يا معلّم . صوّرتني كما أنا . إني أعشق الحزن ، وأنا على هذا منذ ولادتي . لم أعرف البسمة ، ولا الفرحة ، ولا الحب . قضيت عمري وأنا أرافق الحزن والألم والحِداد ، وإني مُعتادة على ذلك ... صوّر ، يا معلّم ، صوّر !

وقد تأثر سركيس من هذا الكلام أيما تأثر ، وأكبّ على عمله ، فدخل إلى عالمه في الصندوق المظلم ، وصوّر .

أجل ، في ذلك اليوم الربيعي المشرق الضاحك ، تعرّف سركيس على قلب امرأة مُرهف ، يعيش في شتاء دائم ، في عالم مُغلّق تصطرع فيه العواصف والرعود . في ذلك اليوم البديع ، رفع سركيس عينين حزينتين إلى السماء ، وتمم بوضع كلمات مُبهمة .

وخرجت صورة المرأة ، فأتخذها سركيس رمزاً مُجسّداً للحزن ،
 ذكرىً للحِداد وللآستشهاد . وكان ينظر ، بعينين لا تطرفان وبأفكارٍ
 تُمرور في داخله ، إلى الوجه الفائض بالحزن والكآبة ... وشعر ، فجأةً ،
 بثورةٍ نفسيةٍ عارمة تشتمل كيانه . وأدرك أنّ الحياة ليست آبتساماً
 وحسب ، أو بسمّةً مُصطنعةً مؤقتة ... وها هي ذي تتضح له بكلّ
 جبروتها ، وأشكالها المختلفة ، وصيغتها المتغيرة .

ويتحدّث سركيس ، بعد أيام ، في النادي ، عن تلك المرأة دائماً
 الحزن ، المحرومة من الأبتسام .

فيدي أبي رأيه ببساطةٍ مُتناهية :

— أجل ، يا سركيس ، أجل . أجتهد في أن ترى المرء كما هو .
 لا تُحاول أن تُجبره ! لا تُقيّده ! لا تضغط عليه ! وعندئذ ترى الظرف
 الطبيعي والقرنى !

X

ولقد ظلّ سركيس بولاديان ، بعد ذلك اليوم ، يُصوّر ، على مدى
 سنوات ، ويُصوّر ...

والوجوه أمامه تتغير ، كلّ يوم : مُتبسّمةً بعفويةٍ أحياناً ، ومحزونةً
 مفاجوعةً أحياناً أخرى ، أو يراها باكيةً ، شقيةً ، وجلةً ، أو مسرورةً
 مُستبشرةً .

ومع رحلة الأيام ، أمسى سركيس ، الفنان الوحيد المُصوّر في
 بلدتنا ، يُرى وهو يرفع رأسه أحياناً إلى السماء ، ويهتف :

— إيه ، آيتها الوجوه العجيبة ! إيه آيتها الدنيا الخداعة الغامضة !!

السنڀور

I

هو آبنُ الأخر الأكبر لـ « قنصل » بلدتنا !

كان قد هاجر ، في شبابه الباكر ، إلى أمريكا الجنوبية ، وعاد إلى مسقط رأسه ، كَسَب ، بعد أن استنزف شبابه هناك ، ولقبه أهل البلدة بـ « السنڀور » .

أراه في جَوَانِبِ السُّوق ، أو في آيَةِ زاوِيَةٍ مُنْعَزِلَةٍ ، واقفاً ، صامتاً ، غارقاً في أفكاره . كان نحيل الجسم ، ذا عَيْنَيْنِ هادئتين زرقاوين في مِثْلِ زُرْقَةِ البحر ، شاحب الوجه ، تبدّى في مُحَيَّاهُ بِسَمَةٍ وكَأَنَّهَا تتحرَّق ، مُعْتَمِراً قُبْعَةً قد جَارَ عليها الزَّمن .

كان يُؤدِّي كلَّ ما يُعْهَدُ إليه من عمل ، بُغْيَةَ الحُصُولِ على لقمةٍ يَتَبَلَّغُ بها .

ويدا أنه كان قد أُعْفِيَ من الخدمة العسكرية وهو في المَهْجَر ، بدليل أنه لا يتلقَّى مثل « الشيك » الذي يصل إلى عمِّه ، القنصل ، معاشاً

شهرتاً . ولما طال به التَّسكُّعُ في السُّوق ، عزم أخيراً على أن يستفيد من المُنْذَرِ القليل الذي عاد به من المهجر ، فاستأجر دُكاناً ، بجوار القهوائي مينا ، يبيع فيها الحلوى ... فكُنّا نذهب جماعاتٍ لنأكل عنده البَقْلَاوَة .

والسَّنيور يُحِبُّ الصُّحْبَة ، والمتعة . وهو مُتحدِّثٌ لَبِيقٌ ، وعريقٌ في شُرْبِ العَرَق . كنّا نفهم نفسيتَه جيّداً ، ونميل إلى مُمازحته ، فهو طيِّبٌ وديعٌ ، لا يُؤذي أحداً ، ويُعاملُ الناسَ جميعاً بمودّةٍ غامرة .

وكان إذا ما تناول بِضْعَ كُؤُوسٍ من العَرَقِ الصُّرْفِ ، فانتشئ ، آنحلتُ عُقْدَةً لسانه ، وما عاد يتوقّف عن قَرَعِ الكُؤُوسِ وشُرْبِ الأُنْخابِ ، وعن الحديثِ واللقاءِ الحُطْبِ مدى يومين مُتوالين !

وعندما يسترسل في الحديث عن بنات أمريكا الجنوبيّة ، ووصف مفاتنهنّ ، يَرِقُّ حتى يُمسي مثلَ رقائق البَقْلَاوَة ! وينطلقُ يُغني ، بالإسبانيّة التي لا نفهمها ، أغنيةً يُؤدِّيها بإحساسٍ عميقٍ ، وفي كفه ، الكبيرة البرونزيّة اللون ، عجينة البَقْلَاوَة ، يُحضِّرها ، قبل أن يُعهد بها إلى الخباز « كرايد » يخبزها بعنايته وبذوقه الرّفع .

II

ذات يوم ، رأينا السَّنيور - وقد ذهبنا إليه لنأكل البَقْلَاوَة - وهو في مَعنويّةٍ عالية ، وحيداً أمام كَأْسِ العَرَقِ ، يُغني سعيداً ، أغنيةً إسبانيّةً وكأنه هو الذي لحنها ... على حين ارتفع ، من النّاحية الأخرى ، صوتُ القهوائي مينا مُعْتِياً بالتركيّة أغنيةً يطرب لها أيّما طرب .

بترحيب زائد آستقبلنا السنيور . وبعد أن أخذنا نصيبتنا من
البقلاوة ، أكتفتُ إليه أسأله :

— سنيور ! أنت ، اليوم ، مُشرَحُ الصِّدر على غير مألوف
عادتك ، أدام الله عليك الفرح . هل لك أن تُحدِّثنا عن جوانب من
حياتك التي قضيتها في أمريكا الجنوبيَّة ؟ فإننا سنُسَرُّ لذلك كثيراً .

أرسل إلينا السنيور نظرةً من عينين تبسمان ، ونطق بعدة كلمات
إسبانيَّة لم نفهمها ... ثم أنشأ يتحدَّث عن حياته ، بلغةٍ أرمنيَّة مُتميِّزة ،
قال :

— أبتدأت ، من اليوم الأوَّل من أيَّام غربي ، العملَ عند صانع
حلوىٍ عاملاً مُتمرِّناً . وظللتُ عشر سنين في هذه الصِّنعة ، تعلَّمتُ
خلالها صُنع أصناف كثيرة من الحلوى . ولما كنت أعرف أنَّ أفضل
الحلوى في مسقط رأسي هي البقلاوة ، لذلك تَرَوْن أنَّي لا أصنع غيرها
الآن . وعندما قرَّرتُ ترك هذه المهنة ، يا أبنائي ، وأنا في مطلع شبابي
ما أزال ، كنتُ أطلِّع إلى مهنةٍ أخرى تُبرِّز فيها مهاراتي ويشتهر أسمي .
وبعد تفكيرٍ طويل وجدتها ، وقرَّرتُ العمل فيها ... تلك هي مهنة
التصوير الضوئي .

لا أريد أن أمتدح نفسي . ولكنَّ يَحْسُن أن تعلموا أنَّي كنت شاباً
وسياً ، وبعد عشر سنوات وأنا أتغدَّى بالحلوى ، بدأ العسلُ يقطر من
شفتي ، وبدأ خدائي مثل أوراق وردةٍ حمراء ، وأمَّا عينايا فأشبهتا بحراً تَمَيَّز
بالحُسن والعمق .

وهكذا آرديتُ ، يوماً ، أنيق الثياب ، وتجمَّلتُ بكلِّ ما يُرضي

النَّظَر ، وسافرتُ إلى مدينةٍ تُسمَّى « مونتو فيديو » . وفي تَجْوَالي في أبرز شوارعها ، دخلتُ أوَّلَ محلٍّ للتصوير صادفته .

وأخذ السَّنيور ، هنا ، رشفةً من العَرَق ، وتناول قطعةً من البَقلاوة ، وراح يعضُّها مُتمهلاً ... ونحن صامتون ، تُتابع حديثه .

وجدتُ ، هناك ، رجلاً أشيب ، وراء منضدة ، وإلى جواره فتياتٌ يتبادلن الحديث ، مُتضاحكات .

حيثُ به احترام . وعرضتُ عليه رغبتِي في العمل عنده . ففحصني ، وأنا أقف أمامه ، من قِمة رأسي حتى أخمص قدمي ... ثم أبتم ونهض إليّ يقول :

— تفضَّلْ ، أيها السيّد ! اجلس . أتمس منك المَعذرة . إنَّ عندي ، اللحظة ، موعداً هاماً ، أنتظرُني ، وسأعود إليك بعد ربع ساعة ، لأبحث في طلبك .

ودخل إلى بابٍ جانبي ، وغاب وراءه .

جلستُ ، وأنا أتلفَّتُ حَوالي ... وسرَّحَ ناظري بين آلاف الصُّور الملونة المعلقة على الجدران ، التي تنثرُ جواً فنياً فواحاً مُمتعا . فكلَّ صورةٍ منها كانت تصرِّخُ بالفنِّ الجذاب ، تماماً مثل شُعاعات الشَّمس البازغة بالوانها الزَّاهية الشفافة .

وحطَّت عيناَي ، دونما قصدٍ مِنِّي ، على الفتيات اللواتي كنَّ قد قطعن حديثهنَّ وأخذن يرمُقُنني مُتبَسِّمات ... وههنا أحسستُ بأنَّ ربيع حياتي قد بدأ يفتتح ، أوَّلَ مرَّة ، بأضواءٍ بديعةٍ مُلتهبة .

وسرحتُ في الخيال ، لحظةً ، نسيْتُ فيها أين أنا ، غارقاً في سعادةٍ
لا توصف ... وما رجعتُ إلى الواقع إلا بعودة الرجل الأشيب .

وبدأ يستفسرني :

— أحسب أنك مواطنٌ من هنا ، يا سيّد ، أليس كذلك ؟

أجبتُه :

— لا ، مع الأسف ! فأنا لُبْنانيّ ، ساقطني الظروف إلى هذه البلاد !

— منذ متى وأنت هنا ؟

— من عشر سنين تقريباً .

— ماذا كنت تعمل قبل اليوم ؟

— في صناعة الحلوى .

— وما الذي يدفعك الآن إلى ميدان التصوير ؟

— إحساسٌ غامضٌ أنبثق في داخلي ، يا سيّدي !

— هل عندك أفكارٌ عن هذا العمل ؟

— لا ، مع الأسف ! لكنني واثقٌ من أنّي سوف أحظى بتقديرك

الرّفيع ، وبمحبّتك !

— على كلّ حال ، نحن ننتمي إلى وطنٍ واحد ، وأمةٍ واحدة !

— أنا أرمنيّ ، يا معلّمي .

هزّ الرجل رأسه مُستحسناً :

— أوه ، أرمنيّ ! سمعتُ كثيراً عن الأرمن . إنهم ماهرون ، أذكاء ،

أوفياء ، وذوو معشر حَسَن . أنا سعيد بالتعرُّف إليك . عَرَضُكَ العمل
عندي مقبول ، ويُمكنك المباشرة صباح غد .

قلت وأنا أنهض :

— لك شكري العميق ، يا معلِّمي . لسوف أبذل قصارى جهدي
للنَّجاح في العمل ، وسَتُثَبِّتُ لك الأيام أنَّ مَنْ يقف أمامك الآن قادرٌ
على النَّجاح ، وعلى التَّكْيُف ، وعلى أن يكون محبوباً ونافعاً في الوقت
ذاته .

فأجاب المصوِّر :

— آمل ذلك ، يا سيِّد . ولتبدأ عملك غداً .

قلت ، وأنا أهمُّ بالانصراف :

— إلى الملتقى ، يا سيِّدي .

وعلى الرِّصيف ، رأيتُ أولئك الفتيات ، يُلوِّحن لي بأيديهنَّ
مُودعات ، ويُرسِلن قُبْلَاتٍ في الهواء !

III

ورَشَفَ السَّنيور رشفةً من العَرَق ، وتابع :

أسمعوا ، يا شباب ! لم تكُنْ تمضي عليَّ سنة وأنا في هذه المهنة ،
حتى كانت أشبه بلعبةٍ بين يدي . وكان من مُودَي ذلك أنَّ معلِّمي تعلقَ
بي ، وما عاد يستطيع الاستغناء عني لحظةً ، وطارت شهرهٌ محلنا حتى
بلغتُ بلاداً بعيدة .

وكان عملي يقتصر على الجنس اللطيف ، فهنّ يتردّدن كثيراً على محلّنا . وهنا أدركت أنّ الحياة ليست أكلاً وشرباً وحسب ، ولكن أيضاً الاستمتاع بمباهج الحياة وخيرات الطبيعة وجمالها !
آسمعوا ، يا أولاد .

أفتّح في مدينتنا معرضاً للتصوير الضوئي . فأرسلت إليه خمس صویر من إخراجي ، حازت إثنان منها الجائزة الكبرى . وكان يوم العرض ذاك ، يوم أنتصار لي ، ومجدٍ عُقد تاجه على رأسي . وكان عُرساً تحقّق فيه حلمٌ حياتي . ونُشر اسمي وصورتني في الصُحف مع قيمة الجائزة المائيّة . وصار الناس يتحدّثون في كلّ مكان عن الفنان الأرمنيّ الشهير ، فأزدهيتُ بنفسي ومشيئتُ مُختالاً فخوراً .

كنتُ ، والحمد لله ، مُوقفاً في مجالي ، مُتمتعاً بالصحة والعافية . وغدوتُ مُؤمّلاً للزواج ، قادراً على تكوين أسرة ، وتربية أطفال ، وتذكّر موطني . لكنّي لم أتمكّن من أنّ أفكّ رقبتي من قبضة بنات أمريكا الجنوبيّة ، وقد نهّشنّ لحمي ، ونُحولي - الذي ثلاخطون - شاهدٌ على ما أقول . لقد أّشعنّ الظلام في روحي ، وسوّذنّ حياتي وأذبلّتها .

آسمعوا ، يا أولادي !

لا تنفروا ، ولا تذهبوا إلى المهجر . آقنعوا بقليلكم ، تعايشوا مع مرّكم ، أنبشعوا بيتاً وأسرة ، آحبوا الأرض والوطن .

آحتسئُ السّنيور الجرعة الأخيرة من العرق الصّرف ، وسدّد إلينا نظراتٍ طافحةً بالحُمى ... وبضحكةٍ مُفعمّةٍ بالحرارة أخذ يُنشد هذا القول الذي يُعبّر عن مختصر حياته :

بناتُ أمريكا الجنوبيّة
سمراواتٌ ، جذاباتٌ وناعمات
كلهنّ سحرٌ وجمالٌ ودلال
ولكنّي لن أعود إلى صُحبتهنّ
ولو رَصَّعَن رأسي بتاجٍ من ذهب !

IV

كنتُ أشاهد السَّنيور ، أحياناً ، يطُوف في شوارع البلدة ، وعلى
رأسه صينيّة البَقلاوة ، وهو يُنادي :

— البَقلاوة ! البَقلاوة !

في أحد الأيام ، وبينما كان يقوم بجولته المعتادة في أحد الأزقة
الضَّيقة ، سَمع صهيلَ خيولٍ طليقةٍ تهْدُرُ جائعةٍ ووقَّعَ خطواتها يصمّ
الآذان . فحاول أن يتحاشاها ويحتمي بمكانٍ ما ، ولكنّها كانت أسرع
منه ، فصَدَمَتْه ، وداسَتْه بسنابكها ، ومَضَّتْ ، وأنطرح على الأرض غائباً
عن وعيه . فرآه السَّائس ، الذي كان يجري وراء الخيول ، ومال عليه يُريد
مُساعدته . ولكنَّ السَّنيور لم يشأ أن يردَّ عليه ، فملاً السَّائسُ حُرابه
بالبَقلاوة ، وتركه ومضى . ثم جاء إثنان من أهل الرُّفاق وحملاه إلى بيته .

وهكذا وقع — مَنْ كان سَنيورَ بلدتنا يوماً — طريقَ الفراش ، جريحاً ،
مريضاً ، وبلا مُعين . وعاد السَّنيور ، بعد مدّة ، يظهر من جديد في
شوارع البلدة ، مهموماً محزوناً ، وقد هجر صناعة البَقلاوة ، وراح يعمل
حمّالاً في السُّوق . وكان يقنّع ، كما تدرُّه عليه هذه المهنة ، بقَدَحٍ من
العَرَقِ الصُّرفِ ويقطعه من الجُبن ، ويمضي مُطأطئ الرأس . وأمسى

الضَّيْفَ ، المفروض ، على القهوائي ميناس ، والمُساعد المُردّد لأغانيه
التركيّة .

منذ ذلك الحين تبدّلت نفسيّة السّنيور ، فأخذ يُفضّل العزلة غارقاً
في التّفكير . وكان أبي يستخدمه بأن يُرسل معه ، أحياناً ، بعض
الأغراض إلى البيت . وجاءنا في يومٍ ، مُتنكبّاً سلّة ينوء بحملها ،
ويلهت ... فسألته :

— ماذا بك ، يا سنيور ؟ أنت تغيّرت كثيراً . هل أنت في حاجةٍ
إلى شيء ؟

أجاب :

— لا شيء ، يا ولدي زوهراب ! الأمر واضح . هَرَبْنَا من محالب
بنات أمريكا الجنوبيّة ، فوقعنا تحت سنايك الخيل هنا .

قلت :

— لا عليك ، يا سنيور . لا يُصيّنا إلا ما كتب الله لنا ، وعلينا أن
نَحْمَلَه صابرين ، وما بيدنا حيلة . هَيَّا أَجْلِسْ ، وَخُذْ قَدْحاً من العَرَقِ
حتى تستردّ أنفاسك .

— لا أذاق الله الغربة لأحد . (قال ذلك وهو يجلس مُتمهلاً ، ثمّ
أردف بحمارة) لقد بلغتْ ، في حينِ مضى ، وَضْعاً حَسَناً جداً . ولكنّ
يبدو أنّ كلّ شيء فارغ . مَنْ ليس له بيت ولا أسرة ، ليس له شيء في
هذه الدُّنيا . ليس إلى جانبي مَنْ يُعطيني كأس ماء . ألا تَبْأَ هذه الحياة .
ليتنى مُتْ وأنتهيت !

قلت :

— لا تَيْأَسْ هَذَا الْيَأْسَ كُلَّهُ ، يَا سِنِّيور ! حاولْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الدُّنْيَا
بِمَنْظَارِ التَّفَاؤُلِ وَالْأَمَلِ ، فَتَبْتَسمَ لَكَ الْحَيَاةُ .

لَمْ يُجِبْنِي بِشَيْءٍ ، بَلْ كَرَعَ قَدَحَ الْعَرَقِ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، وَمَسَحَ شَفَتَيْهِ
بِكُمِّهِ ، وَأَلْقَى كَلِمَةَ شُكْرٍ ، وَمَضَى خَافِضاً رَأْسَهُ .

V

وَمَضَتْ مَدَّةٌ ، آزَدَادَ فِيهَا هُزَالُ السَّنِّيورِ ، وَشَحْوَبِهِ . وَكُنْتُ أَرَاهُ ، فِي
الْأَمَاسِيِّ ، فِي مَقْهَى مِينَاسٍ مُنْزَوِيّاً فِي رُكْنِهِ أَمَامَ كَأْسِ الْعَرَقِ وَغُلْبَةٍ مِنْ
سَمَكِ السَّرْدِينِ ، قَابِعاً فِي الظَّلَامِ لَا يُكَلِّمُ أَحَدًا ، وَكَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ سَاعَتَهُ
الْأَخِيرَةَ .

ثُمَّ إِنَّ أَيَّاماً أُخْرَى مَرَّتْ ، لَاحِظْتُ فِيهَا أَنَّ السَّنِّيورَ غَائِبٌ . فَخَطَرْتُ
لِي أَنْ يَكُونَ مَرِيضاً . فَذَهَبْتُ مَعَ الْأَصْحَابِ لَزِيَارَتِهِ .
رَأَيْتَاهُ وَقَدْ أَقْعَدَهُ الْمَرَضُ ... وَبَدَأَ لَنَا وَاضِحاً أَنَّ أَيَّامَهُ الْأَخِيرَةَ قَدْ
دَنَتْ .

أَسْتَطَاعَ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَيْنَا ، وَبِصُعُوبَةٍ جَلَسَ فِي سَرِيرِهِ ، وَأَخَذَ يُغْمِغِمُ
بِكَلَامٍ لَا يَكَادُ يُسْمَعُ :

— يَا أَوْلَادَ إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَغَرَّبُوا ! لَا تَتَحَمَّسُوا لِلْهَجْرَةِ . قَدْ يَكُونُ يَوْمُ
الْهَجْرَةِ جَمِيلاً ، وَلَكِنَّهُ سَرِيعُ الْإِنْقِضَاءِ . أَبْقُوا هُنَا ، كَوْنُوا بَيْتاً وَمَطْرَحاً .
أَحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً . حَافِظُوا عَلَى وَطَنِكُمْ .

ثُمَّ أَطْبَقَ جَفْنَيْهِ ، وَأَسْنَدَ رَأْسَهُ الْوَانِي عَلَى الْوَسَادَةِ ، فَتَحَسَّبَهُ وَكَأَنَّهُ
غَاصَ فِي أَعْمَاقِ دُنْيَاهِ الْغَامِضَةِ .

وبعد يومين إثنين ، قُرِعَ جرسُ الكنيسة ، ناعياً إلى أهل البلدة
السَّنيور الطَّيِّب .

سِرْتُ وراءَ نعشه مُفكِّراً .

وبعد أن أهيل عليه التُّراب ، وارتفعت الحجارة فوقه ، استذكرتُ
قولته التي بدت لي أشبهَ بمرثيةٍ ناعية :

بناتُ أمريكا الجنوبيَّة

سمراواتٌ ، جذاباتٌ وناعمات

كلَّهنَّ سحرٌ وجمالٌ ودلال

ولكنِّي لن أعود إلى صُحبتنَّ

ولو رَضَعْنَ رأسي بتاجٍ من ذهب !

المدفون

كان ، من أصحاب التّوادر الطّريفة الذين يُجالسهم أبي ، المرحوم
« نرسيبيان » ، الذي قصّ عليه يوماً هذه الحكاية ... قال :

في زمنٍ بعيد ، وفي قريةٍ ما من القرى الأرمينية ، مات رجلٌ ،
وسُجّي في تابوتٍ ، حُمل على الأعناق ، ومشى الناس وراءه في موكبٍ
حافلٍ إلى المقبرة .

وبعد الانتهاء من الصّلوات على القبر ، وقُبيل إنزال النّعش في
الحفرة ، سُمِعَتْ قرعةٌ في داخل التّابوت وقرعٌ وكأنّ أبواب الجحيم تفتّحُ
وتُغلقُ ، ثمّ ارتفع غطاء التّابوت ، واستوى الميتُ جالساً فيه ... فريغَ
الحاضرون جميعاً من هذا المشهد الرّهيب ، على حين أخذ
« المبعوثُ حيّاً » يُجبل بصره بين الحاضرين ، وهو يمسح العرق المتصبّب
من جبينه ووجهه ... ثمّ طلب ماءً يشربه وطعاماً يأكله !

وراح المشيّمون ، من رُعبهم وآرتياعهم ، يتدافعون ، ويلبسون

بعضُهم بعضاً طالين الحرب ، وتاركين « خادِم الرّب » بين حَدّين ،
مُضطرباً مشدوهاً . فما كان من هذا إلّا أن أُطبق الكتابُ المقدّس بين
يديه ، ورسم على وجهه إشارة الصليب ، ثم تشجّع ، وتوجّه بخطابه إلى
المبعوث ، يقول بصوت مُرتعش ولكنّ تبدّى فيه الشجاعة والإيمان ،
وجاء قوله أشبه بالشعر :

يا ولدي ! ألت ، الآن ، ميت !
وما عندنا هنا ماء ولا طعام !
وليس لك ، بعد الآن ، أن تتنفس أو تقوم !
ليس لك إلّا القبر المفتوح !!

ثمّ ألفت إلى الحفّارين ، الضّخمين المسلّحين بالمعول والرّفش ،
وأمرهما بتصفية الحساب مع هذا المبعوث المزيف فوراً . فهجما على
المبعوث مسعورين ، ونزلا عليه ضرباً بالمعول والرّفش ، وأعاداه إلى
تابوته ، وأحكما إغلاقه وأنزلاه في القبر .

ورسم الكاهن على وجهه وصدره إشارة الصليب عدّة مرات ، وثقّفه
بكلمات غير مفهومة ردّدتها شفتان مُرتعشتان ... ثمّ توجّه إلى بيته وعلى
وجهه ابتسامة ملائكية !

*

هتف أبي ، وهو يستمع إلى هذه الحكاية ، متأثراً :
— يا لها من مَراسيم دُفِن !

وأستنكر هذه الجريمة ، الفظيعة ، يرتكبها كاهنٌ وزبائنه بحق الميت المبعوث من جديد ، تما يتعارض مع أُسس الإيمان ومفاهيم الإنسانية .

قال نرسيسيان مُوافقاً :

— أجل ! هذا ما وقع في زمنٍ مضى . إنها لجريمةٌ أن يُحكَم على رجلٍ بالموت وقد مَنَّ الله عليه بالحياة وهو على حافة قبره ، ويُدفن حياً !

قال أبي ، وقد مضى في تفكيره بعيداً :

— قتلوا الرجل ، ودفنوه جوعان عطشان ! ثم إنهم لم ينتظروا أن يسألوه عن الأحوال في الحياة الآخرة ! لقد كانت فرصة نادرة وهبها الله لهم ، ليستجوبوا الرجل ، ولكنهم خلطوا الخير بالشر ، قتلوه بجهالةٍ وغباء . ولو أنه كانت في رأس الكاهن ذرةٌ من عقل لأبقى على حياة المبعوث للتعرف على سرٍّ من أسرار الآخرة معرفةً قد تمنح الخاطئين أملاً .

قال نرسيسيان بنزقي واضح :

— ولكن ... لا أحد يهتم بالآخرة ، يا جورج ! (وألتمعت عيناه ، وأخذ يُغمغم بكلامٍ غير مفهوم ، ثم قال) ومع ذلك لو كانوا سألوه عن الحياة الآخرة ، لأجابهم بأنها أمتدادٌ نورٍ لا متناهٍ ، وسكونٌ أبديٌّ ، وسلامٌ خالد ... ولكن ، للأسف ، لا يوجد ماء ولا خبز .

المخنفون

إنهم خمسة رجال ، يرقدون الآن في مقبرة قرادوران الصغيرة .
ذهبوا ، في يوم واحد ، ضحية لسوء الحظ .

كان يوماً حزيناً ذاك الذي خيم على القرية بأسرها . أسين ماء
البئر ... ففكر الأب وأولاده الأربعة بنزح مائه بواسطة مُحركٍ يَضَخُ الماء
إلى أعلى .

أذلوا المُحرك في البئر ، وشعلوه . ولكن بدا أنه بعد ما استنفد هواء
البئر توقف عن العمل ، وقد اختلط دُخانُ الوقود المحروق برطوبة البئر ،
فشكّل جواً ساماً خانقاً تتعذر معرفته على هذا الرَّهَط من الناس .

مال الأب الأكبر برأسه فوق البئر بغية معرفة سبب توقف المُحرك ،
ولكنه ما كاد يفعل حتى دار رأسه ، وفقد وعيه ، وسقط في الجُب !

استغرب الأب ذلك ، فمال هو الآخر ليعرف ما جرى ، فكان أن
لحق بآبئه ... وهكذا تلاحق الأبناء وأبوهما واحداً بعد الآخر ، وكلٌّ يريد

أَنْ يَنْقُذَ مَنْ سَبَقَهُ ، فَسَقَطُوا كُلُّهُمْ ، وَغَرَقُوا ، فِي بئرٍ لَا يَزِيدُ عُمْقَهُ عَلَى
خَمْسَةِ أَمْتَارٍ !

إِنِّي كُلَّمَا مَرَرْتُ بِجَانِبِ الْمَقْبَرَةِ تَذَكَّرْتُ الشَّجْعَانَ الْخَمْسَةَ ،
الْأَوْفِيَاءَ ، الَّذِينَ يَرْقُدُونَ هُنَا ، بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ وَسُوءِ حَظِّهِمْ ، وَتَذَكَّرْتُ
الْبِئْرَ الَّذِي كَانَ يَوْمَ شَوْمٍ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ . وَلَكِنْ مَا يُحْزَنُ فِي نَفْسِي أَنَّ
هُؤُلَاءِ الْخَمْسَةَ كَانُوا صَيَّادِي سَمَكٍ ، مَهَرَّةً ، يَزْلُونَ الْبَحْرَ الْخَضَمَ فَلَا
يَهَابُونَ فِيهِ أُمُوجًا هَائِجَةً وَلَا عُمْقًا وَإِنْ كَانَ سَحِيقًا ... وَمَعَ ذَلِكَ غَرَقُوا
فِي بئرٍ مَاءٍ ، وَسَبَّحَانَ اللَّهَ عَلَى حِكْمَتِهِ وَتَصْرِيفِ الْأَقْدَارِ .



هَذِهِ الْحَادِثَةُ الْخَزِينَةُ تَسْتَدْعِي فِي خَاطِرِي حَادِثَةً أُخْرَى كَادَتْ
تَقْضِي عَلَى « الْفِيلَسُوفِ يَنْفَدُونَ » خُتْقًا ... فِي سَطْلٍ !

وَقَعَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ كَانَتْ الْمِيَاهُ مَقْطُوعَةً فِي بَيْتِ يَنْفَدُونَ . وَكَانَ قَدْ
تَمَوَّنَ بِالْمَاءِ فِي سَطْلٍ أَحْفَظَ بِهِ .

وَعَادَ إِلَى الْبَيْتِ فِي ظَهْرَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْقَائِظِ مُرْهَقًا ، مَحْرُورًا ، فَأَرَادَ
أَنْ يُرْطَبَ رَأْسُهُ بِقَلِيلٍ مِنَ الْمَاءِ . مَاءَ الصَّنْبُورِ مَقْطُوعٍ ، وَمَاءِ السَّطْلِ ثَمِينٍ
لَا يَحْسُنُ هَذَرُهُ .

فَرَأَى أَنْ يُعْطَسَ رَأْسُهُ فِي السَّطْلِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُصَبَّ الْمَاءُ صَبًّا
فِيهِذِهِ هَذَرًا ... أَلَا أَنَّهُ إِذَا غُطِّسَ فِيهِ رَأْسُهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَعْمَلَ الْمَاءَ ذَاتَهُ
فِي حَاجَةٍ أُخْرَى ؟! هَكَذَا فَعَلَ ...

ولكن رأسه علق في السُّطل ! وأخذ يتخبط ، ويصيح ، ورأسه في
ماء السُّطل ، يكاد في ذلك يخنق !

ولولا حُسْنُ حظّه وإرادة الله ، لما سمعه جازّ له فبادر إلى إنقاذه من
الغرق في شبر ماء ، ولكان اسمه آحتلّ الصّفحات الأولى في الجرائد اليومية
في العالم : الفيلسوف ينفدون يغرق في شبر ماء !



كانت قصّة الخنوقين الخمسة مُحزنةً جدّاً . وأما قصّة ينفدون فكانت
مجالاً تندرّ عند أبي ، الذي كان يحلو له ، كلّما ألتقى ينفدون في السوق ،
أن يستوقفه مُلتمساً منه أن يُعيد سرد القصّة على مسامعه .
يقول له :

— ينفدون ! هل كان كُتِبَ عليك أن تقطع المحيطات ، لتأتي إلى
كُسب وتموت فيها مُختنقاً في شبر ماء ؟

ولا ييخل ينفدون بالرّدّ ... كان يُجيب ، في كلّ مرّة ، بلهجة
لا تخلو من جدّ :

— أرايت ، يا أخي جورج ! كدثُ أزهقُ روحي لحظةً خطر لي أن
أرطّب رأسي بقليل من الماء !
فيضحك أبي :

— ليس الذئب ذنبك ، يا ينفدون ، بل هو ذنب أنقطاع الماء . إن
الماء إذا أنقطع ، فإمّا أن يموت المرء من العطش ، أو يخنق في سطل ماء ،
لتوفير عذاب الموت !



فيجيب زفدون ، وهو يمسد شعره :

— ما كنت أعرف ، يا صديقي ، أن حجم السطل بقدر حجم رأسي ! فلما غمست رأسي فيه هم بأن يتلعي !

ثم يكفهر وجهه ، فجأة ، ويرسم الرعب فيه ، ويبدأ بسرد ما جرى له من البداية ... ولا يفوته أن يقول متفلسفاً :

— نعم ، يا أخي جورج ! نحن نعم في خضم بحار الحياة ، ونستمتع بها ، مُرتدين ثيابنا أو عُرّة ... كذلك يعترينا المرض ، أو الإهمال ، أو تتابنا الهُموم ، ونرمى في زوايا النسيان ، أو نختنق في قطرة ماء !

حظ أبي

في يومٍ من أيام العام ١٩٤٠ ، عزم أبي على السفر إلى بيروت بصُحبة القسّ « آسادور » راعي كنيسة الطائفة الإنجيليّة في كسّب ، وذلك قصد أن يزور قريباً له يعمل بجوار مطار حُلدة ، ثم يقوم بزيارة أختي التي تعمل خياطة هناك ، وأخي الأكبر الذي يُتابع دراسته .

استقلّ والقسّ سيارةً هرانت إلى اللاذقية أولاً ، وفيها توجّها إلى الباص الذي سيقلّهما إلى بيروت ، ولم تكن رحلات السفر إلى لبنان مُتنظّمة في ذلك الحين ، فقد كان الباص يتوقّف حيثما يحلو له ولا يُتابع سيره حتى يستوفي حاجته من الرُّكّاب . وهذا ما كان : فبعد أن أكمل الرُّكّاب عدداً ، تحرّك وتبدأ مثل شيخ هَرم ، يتأفّف ، وينفث الدُّخان ، ويسعل في مسيره ، ويملاً الجوَّ غطاسا !

جلس أبي والقسّ مُتجاوزين ، مثل تلميذين مهذّبين ، لا يتكلّمان إلّا يسيراً .

كان الباص يضمّ عشرين راكباً ، من الرجال والنساء ، إضافةً إلى أطفالٍ لم ينقطعوا عن البكاء طوال الطريق .

والباص يهتد ، في مسيره ، ويُزجر ، فكأنّه يحتجّ على هذه الرحلة . ولكنّ صاحبه لم يأتبه لأعتراضه وتابع قيادته بعناد . فلما استنفذ الباص كلّ وسيلةٍ للاحتجاج ، وعند مشارف طرابلس ، سُمِع وهو ينفخ نفخةً عظيمةً ، ثمّ يزقّ زعقةً مُخيفةً ، ويتوقّف ... وأرتفع الدخان ، ووقع الرّكاب في حيرةٍ من أمرهم ، وأسرعوا يُغادرون الباص مُتدافعين في هَلَع وفوضى . ثمّ إنّ الباص خلا من رُكابه ، على عويل النساء وصراخ الأطفال وتدافع الرجال ، واشتعلت فيه النار وسط هذه الفوضى الرهيبة ! وأما سائق الباص ، فقد تهالك على الأرض ، يلطم رأسه بكفّيه ، ويصيح بحزنٍ أليم :

— خرب بيتي ، يا إخواني ! ضِغْتُ ، مُتُّ . أصبح كلُّ ما جنيته خلال السّنوات العشر رماداً . آه ، يا ربّي ، أيُّ ذنبٍ جنيْتُ حتى رميتني بهذا العقاب !؟

ثمّ جعل يُخاطب الرّكاب قائلاً :

— يا إخواني ويا أخواتي ! لم يعد في إمكاني أن أنقلكم إلى بيروت ، وقد أصبح الباص هيكلاً مُحترقاً . فتدبّروا أمركم ... وليس عندي ما أقوله غير هذا !

وتجمّع الناس حول الباص ، مذهولين ، يتأسفون على هذه الكارثة الفظيعة ، وهم عاجزون عن تقديم أيّة مُساعدة ، والباص أمامهم هيكلاً بين رماد .

وقف أبي مع القسّ آسادور وسط المتجمهرين ، وكأنّهما يَصْحُوان
من حُلْمٍ كثيف ، يَفِرُّ كان أعينهما ، وكلُّ منهما يحمل حقيقته الصّغيرة .
وتلاقت أنظارهما ، فقال أبي للقسّ يقطع جبل الصّمت :

— آتبغني ، يا محترم !

وشقّ طريقاً له بين المتجمهرين ، وأسرع الخطى مُبتعداً . أنا القسّ
الذي لم يفهم شيئاً ، ولم يعرف إلى أين المسير ، فقد قال مُتسائلاً :

— إلى أين تُسرّع هكذا ، يا سيّد جورج ؟! أنتظر قليلاً . دَعْنَا
نُفَكِّر في الحلّ .

فأجابه أبي :

— أيّ حلّ ، وأيّ تفكير ؟! آحمد الله أننا نَجُونَا من الجحيم ،
فلنُسرع الآن إلى التّعميم ! آتبغني ، يا محترم ، ولا تتلكّأ .

فأوسع خادمُ الرّبّ خطواته ، كي يلحق بأبي ، دون أن يفوته أن
يُرَدّد كلماتٍ وعظيّة :

— إنّه ليتعذّر علينا ، وإن سِرنا طول عمرنا على هذا النّحو ، يا سيّد
جورج ، أن نبلغ التّعميم . إنّه للمؤمنين والصّالحين . أيّ إنجيليّ أنت !
يُخَيِّلُ إليّ أنّك لم تطلّع قطّ على مواظنا (وتابع عِظّته وهو يتأثر خطاه
لاهنّا) لا تتخدّع نفسك بأنك وشيك الوُصُول إلى التّعميم ، يا سيّد
جورج !

فأجاب أبي :

— أنا مُقتنع ، يا محترم ، بأنّ علينا أن نصل إلى التّعميم أحياء . إذ
لا فائدة من وصولنا إليه هياكل عظيمة لا يعرف سَدَنَتُهُ ما يفعلون بنا !

أُسْقَطَ في يد القسِّ ، وأَضْطُرُّ إلى أن يعتصم بالصَّمت ، بعد ما سمع
من أجوبة أبي ، هذه التي أقنعتَه بعدم جدوى الحوار معه !



وأخيراً ، بعد مسيرة مسافةٍ ما ، وصلا طرابلس منهوَكَيْن وهما
يلهثان . وأستقلَّا منها سيارةً لتنقلهما إلى بيروت . وهناك ودَّعَ أبي القسَّ
في فناء المَرَّابِ بكلماتٍ مُقتضبة ، وأستأجر سيارةً إلى طريق مطار
خلدة ، حيث زار قريته ، وأستكمل لقاءه وإياه بنجاح ... ثم ودَّعه
ويُسمِّ وجهه شَطَرَ « حَيِّ الأُشرفِيَّة » ، إلى حيث يُقيم ولده ، أخني
وأخني .

أخذ يسير في طريقٍ عريض ، وهو يومئٍ بين اللحظة والأخرى إلى
ما يمرُّ به من السيَّارات رغبةً في أن تُقلِّه إحداها إلى مقصده . ولم يدَّخِرْ
وُسْعاً في أن يومئٍ للسيَّارات الشَّاحنة أيضاً . ولكنَّ سيارةً واحدة ، لم
تأبَّه له ... وهو يُتابع السَّير في طريقلا يعرفه ، ويتعدَّ أكثرَ فأكثر ، حتى
تراءى له لو يعود أدراجه إلى بيت قريته في خلدة . ولكنه خجل من
العودة ، وآثر مُتابعة السَّير أملاً في أن تستجيب سيارةٌ لإيماءته ، وهو
مُسْتَعِدٌّ لأن يدفع كلَّ ما يطلُّب صاحبها من أجر ...

ثم إنَّ الظَّلام نزل على المدينة ، وأبي لا زال يومئٍ يديه ، مُترنِّجاً
مُضْطرباً . وتساءل لماذا لا تقف له سيارةٌ واحدة ، ليس من أجل أن
تُقلِّه ، بل ليُتمِّم له صاحبُها بوضع كلماتٍ اعتذاراً ! ما هذه القسوة من
بني البشر ! وهنا جالت في خاطره كلماتُ القسِّ آساور عن الحجم
والنعم ، وهو يُتابع الإيماء للسيَّارات ، ويُحدِّث نفسه قائلاً : حقاً ، ليس
هنا جَنَّةٌ للأحياء !

وبينا هو مع هذه الخواطر ، توقفت بقربه سيارة ، أشبهت شيطاناً
بقرنين ، أو ثمراً بمخالب ، أو لنقل : ضبعاً بعينين تتقدان ! رأى سائقها
أبي واقفاً على جانب الطريق ، رافعاً في الهواء يده ، فتوقف هو بحذائه
تماماً !

تمتم أبي بكلمات غير مفهومة اختلط فيها الفرح بالخوف ... ثم أنزل
يده ، المومعة ، وأخذ يفكر .

وهنا رأى باب السيارة يفتح بعنف ، ويخرج رجلٌ مثلم ، ويأمر أبي
بجفاء :

— أدخل ، أدخل ! هيا أسرع !

وتحت وطأة هذه اللهجة ، دخل أبي إلى السيارة وهو يردد كلمة :
« أشرفية » ! وعلى مقاعدها رأى في أنتظاره وجوهاً عابسةً مرَبدةً يتطاير
منها الشرر . وأنزوى في الركن الذي أخلوه له ، وهو ما يزال يلوك بلسانه
كلمة أشرفية ... والسيارة تُسابق الريح ، بمخالبها ، وقرونها ، وعينها
المتوقدتين ، مُهَددة كل من يعترض طريقها بالهلاك المحقق .

لم ينتبه أبي إلى الوقت الذي مضى عليه وهو في السيارة . ولكنه
صحا من دُهوله عندما لاحظ أن بيروت قد غابت تماماً عن أنظاره ...
وما عادت عينه تلمح بلدة ، ولا قرية ، ولا ضوءاً في الأرض ولا في
السماء .

ومع خفقان قلبه المضطرب ، تجاسر وطرح سؤالاً :

— إلى أين أنتم مسافرون ، يا شباب ؟

ولكن أحداً منهم لم يتلطف بالإجابة عن سؤاله ، وبدوا له تماثيل

قُدْتُ من الحجر الأصم ، كبيرة ، مُتَسَمِّرة ، لا تنفّس ولا تنطق .
وليس ثمة ما يُشير إلى الحياة ، داخل السيّارة ، سوى مُحركها الذي
يهلّ برتابة ، وأثّون النّار المُندلع من مصباحيّها الأماميين !

تعظم قلق أبي ، واشتدّت مخاوفه ، والسيّارة تشقّ لُجج الظلام
الكثيفة بسرعةٍ جنونيّة . وما كان يَسْعُه أن يفعل شيئاً ، أو يأتي بأيّما
حركة ، وبدا له أنّه وقع في فخّ مُحكم يُهدّد مصيره وحياته ... فكان
لا بدّ من أن يستسلم إلى قدره ، وهو يُرَدّد في سرّه صلواتٍ يتعزّى بها .



بعد سويّعات ، خالها أبي شهراً مديداً ، أخذت السيّارة تُخفّف من
سرعتها الجنونيّة . ثمّ آتعتفت إلى طريقٍ وعرٍ مُحجّر ، وهي تتمايل يميناً
وشمالاً ، سارت فيه سويّعاتٍ خالها دهرأ .

عند ذلك نفد صبر أبي ، فصاح :

— إلى أين تمضّون بي ؟

وأيضاً صمتٌ مُطبّق ، وظلامٌ دامس ، إلّا من شعاعٍ خارق ، من
عينين حمراوين ، في المُقدّمة ، تُشعّان ، وتبعثان الرّعب حتّى في قلوب
التّماثيل الصّمّ القابعة في مقاعد السيّارة حوله .

وتوقّفت السيّارة ، أخيراً ، مُزبّدة مُرّعدة ، أمام كوخٍ مُظلم يرئّض
في سفح الجبال العالية التي تبدو للنّاظر ، أولَ وهلةٍ ، أشبه بكمّواتٍ من
حجارة .

ما أشدّ وحشة هذا المكان !

لم يستطع أبي ، وقد أرسل ناظره مُحاولاً آختراق الظلام ، أن يتبين
معالم المّوقّع . فلا قرية هنا ، ولا مزرعة ، ولا شيئاً يُمكن التعرف عليه
والأهتداء به إلى المكان . إنّه أشبهُ بِمُحْجَرَةٍ صغيرة من حجرات جهنم .

وتبدأ فُصول اللعبة حين نزل المُلثّمون من السّيّارة مُسرّعين ، وقد
أُحتمل كلُّ منهم على كتفه جِملًا ، يغبّيون في الكوخ لحظّة ، ثم يعودون
واحدًا بعد آخر ، وقد بدا الأنهماك عليهم ، والشّرُّ يرسم على وجوههم
المُكفّهرة الشّائبة ... وهكذا حتى تَمّت « العمليّة » الغامضة ، وتلاشّى
المُلثّمون ، السّتّة أو السّبعة ، فلم يبقَ هنا غير السّائق ... الذي بدا
مُبهجًا ، بعد نجاح العمليّة ، وحمّد الله وهو وراء المقود ، ثم ألفت إلى
أبي يُخاطبه :

— الآن ، جاء دورك !

وشغل السّيّارة ، وقادها بالاتّجاه المُعاكس .

هنا سُمع صوت صفير ، بدا أنّه مُتفقّ عليه ، وألتمع نورٌ خافت من
مكانٍ بعيدٍ وسط الظلام الخالك ، مثل عينيّن حمراوين ذُكرتا أبي بمثلهما
أيّام الهجرة حين حاصرتهما الضّباع .

— يبدو أنّ حظّك طيّب ، يا سيّد !

تلقّى أبي هذه الكلمات من فم السّائق ، فحِيلَ إليه أنّها آتيةٌ من
السّماء ، من أفواه الملائكة الأكرمين ! فإذا هو ينتعش ، ويهتف
غير مُصدّق :

— حظّي طيّب ، تقول !؟

— أجل .

يرد السائق بهذه الكلمة ، ويُطلق صبيحة فرح !
— أجل ، طيب ، وطيب جداً ، لأننا لم نصادف في طريقنا تفرأ
من رجال الشرطة !
فسأل أبي :

— والآن ، إلى أين تأخذني ؟
— إلى حيث طلبت : بيروت ، الأشرقية .. أليس هذا هو العنوان ؟
فأضطرب أبي لحظة ، وقد ساد صمت ، قطعه بسؤالٍ منه للسائق
يريد أن يعرف جلية الأمر :
— وماذا كان يُمكن أن يحدث لو أنكم صادفتم الشرطة في
الطريق ؟!

فيجيب السائق بعنجهية من ورث ثروة عظيمة :
— ماذا يحدث ! كنا نلوذ بالهرب ، تاركين كل شيء ، ونلتجئ في
مخاضنا !

— وبعد ذلك ؟
— بعد ذلك ... تكون أنت المسؤول عما في السيارة . ننجو نحن
بأنفسنا ، وتدخل أنت السجن تقضي فيه بقية عمرك أو تلاقى حتفك !
قال ذلك هازئاً ، ثم استغرق بالصبحك .

ويغرق أبي مُتفكراً بالمصير الذي كان متوقعاً أن يسقط فيه . ثم أخذ
يُقلب في خاطره عبارات ، تشفي غليله ، من هذا المتعطرس الذي اتضح
له أنه ليس إلا زعيم عصابة مُهرئين !

وإذ لاحت أنوار بيروت العاصمة ، ثم دخلوها ، ولم يبق إلا قليل
حتى يصلوا إلى الأشرفة ، أنشأ أبي يقول للرجل :

— أسمع ، يا صاحبي ! لو كانت الشرطة استوقفتنا ، ولذئتم أنتم
بالفرار كما تقول ، لكتبتم على أنفسكم أنكم شبان طائشون وجبناء !
على حين تقوم السلطة بتكريمي أنا ، لشجاعتي ، خصوصاً عندما
يستمعون إلى روايتي ، ويتبينون أنني سوري جئت اليوم إلى بيروت زائراً ،
إذ ذاك يستضيفوني معززاً ، ويوصلوني مكرماً إلى الأشرفة حيث يقيم
أبنائي !

دود القز

أذكر جيداً أنّ أهل بلدتنا كانوا ، بين العامين ٥٠ - ١٩٦٠ ،
 منكّبين على تربية دود القزّ للحصول على شرائقه . ولا أنسى البستان
 المواجه لفندقنا الذي كان عامراً بأشجار التوت والتين . كذلك كانت
 المتاجرة بيّوض دود القزّ مُزدهرة ، يُمارسها كثيرٌ من الناس ، منهم تاجرٌ
 - ما أزال أذكره - أصله من « جبل موسى » وهو حلبيّ ، عرفه أهل
 كَسَب بِاسم « يورغي » ، كان يزور البلدة في فصل الربيع ويتزلّ ضيفاً في
 فندقنا ، يحمل معه غلباً تحوي على بيّوض دود القزّ ، ويقفّ عندنا أياماً .

وقد دخلتُ صناعةُ تربية دود القزّ إلى بلدتنا - إضافةً إلى ما يُمارسه
 أهلها من أعمالٍ ومِهَن - بفضل السيّد يورغي ، لتكون مَوردَ دخلٍ
 ثالثٍ ، أو رابعٍ ، لأهل كَسَب عامةً وللمهتَمين بهذه الصناعة بشكلٍ
 خاصّ .

وما أذكره أيضاً أنّ « الجبل - مُوسويّ » هذا كان يُناهِز الخمسين
 من عمره في ذلك الحين ، قد وَخَطَ الشيب رأسه ، وآتَمَ بإفراطه في

نظافة ملبسه ، وجرّسه على حلالة ذقنه كلّ صباح ، وكان نحيل الجسم ، عصبي المزاج ، دقيقاً في تعامله مع الناس .

كان يُناديني من أعلى الشرفة :

— زوهراب ، أبيّ !

فأسرع إليه ، تاركاً المطبخ ، لألّبي طلبه ، الذي كان يتعلّق غالباً بتناوله الطعام ، فهو يُريد ، مثلاً ، صحناً ، سكيناً ، شوكةً ، ملعقةً ، صابونةً ، منشفةً ، وإبريقاً من الماء الصّافي ... وطلباته هذه هي هي لا تكاد تتغيّر . وكان يحرص على أن يتناول طعامه وحده ، تُرافقه صناديقه المملوءة ببيض دود القزّ ، وبجوارها المعلّبات الفاخرة ، مثل سمك الطّون ، الذي كان يكتفي بعلبةٍ منه يعتصر فوقه ليمونةً ، لوجبة الغداء .

كان « الجبل — موسويّ » دقيقاً في مواعيده . يستيقظ صباحاً في موعد مُعيّن لا يَحيد عنه . وبعد أن يتناول فطوره يحمل عُلبَ البيض في حقيبةٍ صغيرة ، ويخرج ليوزّعها على المزارعين . ويتفق أن يحضر إليه بعضهم ، أحياناً ، لاختيار نصيبهم من هذه البيض ، التي يعتقدون أنّها الأفضل .

كان السيّد يورغي يُشيد ، في كلّ مناسبةٍ ، بما يأتينا به من هذه البيض بحماسةٍ ظاهرة ، وكان يتحدّث أحياناً ، بما يُشبه مُحاضراتٍ قصيرةً ، أمام الفلاحين المتجمّعين في فناء الفندق ، شارحاً السبيل الأفضل لتربية هذا الحشرة النّافعة ، مُبيناً الجديد في أصول تربيتها .

وكان يزل ، بعد العشاء ، أحياناً ، إلى بيتنا ، ليقضي سهرةً ودّيةً مع

سرتنا . وكان ما يجري بينه وبين أبي من أحاديث ، شائقٌ لذيد ، وكثيراً ما آتغرق أبي في الضحك لطفرة رواها الضيف .

كان وجوده بيننا مُمتعاً . فهو يحكي لنا عن مسقط رأسه جبل موسى ، وعن طفولته فيه وذكريات شبابه ، ويتباهى بِطُولات هل ذلك الجبل في مقاومتهم للحُكم التركي وفضائعه ... ثم ينتقل في حديثه إلى أرمن حلب ، واصفاً حياتهم ونشاطاتهم المختلفة ، وعن دُكانه ناك المتخصصة في خياطة القمصان ... وينتهي إلى مجال صناعة الحرير ، وتربية دود القز التي يستعذب الحديث عنها فيُفيض يسترسل ، في كل ليلة تقريباً ، حتى حفظنا أحاديثه عن ظَهرِ قلب .



ذات يوم ، تجمع الفلاحون حول طاولة في فناء الفندق . وراح الجبل - موسوي يُبين ، مُحضّر أبي ، محاسن الحرير وتربية دوده والعناية به ، ويُحبّب لهم الاستزادة منه ... ثم سألمهم عن رأيهم في هذه الصناعة التي أدخلت حديثاً إلى كَسْب ، ويستوضحهم عما قد يبدو لهم غامضاً في الموضوع ، مُبدئاً استعدادَه التام لتقديم كلِّ عونٍ ومُشورة للعاملين في هذا المضمار .

هنا ، نهض رجلٌ طويل القامة ، طليق اللسان ، من أهل البلدة ، بدأ الكلام بأسم المجتمعين ، قال :

— نحن مُمتنون جداً من صناعتنا الجديدة هذه ، وشاكرون لك ، يا سيّد جورج ، أنك في طليعة الذين جاؤونا بها لتزيد في دُخلنا . وقد نحتنا هذه الصناعة بركةً خلّت في كل بيت ، والعمل فيها مُمتع

وميسور ، ونحن مُتحمسون لها ، ونتمنى أن تدوم حماستنا لتعود بالربيع
الوفير على أهل كَسَب ، وعلى وطننا العزيز سورية .

حرّكتْ هـ الكلماتُ الجميلة مشاعرَ الجبل - موسوي ، فنهض
يردّ على هـذا الإطراء بعباراتٍ شُكرٍ « على الكلمة ، اللطيفة والحارة »
- حسب تعبيره - وأضاف إنّه ، بإذن الله وإرادته ، سيقدّم كلّ ما في
وُسعه لصالح هـذا المشروع الخيّر ، في كلّ مكان ، وأكد أنّ الإنسان
لا يجيء إلى الدّنيا لهُدر وقته عبثاً ، بل لخدمة البشريّة فيما يعود على الجميع
بالخير والبركة .

ثمّ إنّ المُجتمعين لَهَجُوا ، مع مَنْ آنضمّ إليهم ، بالشُّكر ثانيةً
للجبل - موسوي .

ولكنّ ... قبل أن يُنفضّ هـذا الاجتماع ، تراءى لأبي ، بما فُطر عليه
من مَرَح ، أن يقف ويتّجه بأنظاره إلى يورغي ، ويقول وهو يتبسّم ، إنّه
يرى في حياة دودة القزّ حياةً غريبةً ، منعزلة ... يقول :

— فأنت تعتني بها أياماً طويلة ، وتُطعمها ، ثمّ تراها تنسج قيرَها
حولها ، مُعزّلةً العالم ... فأنت لا تتذوّقها ، ولا تشمّها ، ولا تُداعبها ،
ولا تجد عندها الحبّ ، ولا تجرؤ على شقّ قلبها وأمتلاكه ، خوفاً من أن
تلسعك !

وأضاف :

— إنّ كثيراً من أعمالنا يتعارض مع هـذه الصّناعة . فترية الأبقار ،
مثلاً ، تُعطينا الحليب اللذيذ والجبن واللحم ... وزراعة التبغ تُدرّ علينا
مالاً وفيراً ، وتحملنا على أجنحة الخيال إلى الأحلام العذبة ... ونستفيد ،

من التين والتوت والعنب ، بما يُمكن تجفيفه ، إضافةً إلى الخمر الطيّب
والعصير الذي يفتح الشهية ... ثم إن مهنتي في الفندق تُنتج الأطعمة
اللذيذة ، وتخلق الجو المرح والحياة الاجتماعية ، وتُعقد الصداقات المتينة ،
وتوفّر السُويّعات السعيدة ، وتُذكّي الذكريات الحلوة ... أما عملي في
تربية النحل ، فينتج العسل الشهيّ زكيّ الرائحة ، الذي تُطيل مادّته
الشافية الأعمار وتُشفي العلل ... والدواجن تُعطيني البيض ، ويفيد
برازها في تسميد الأرض ، فهو للمزروعات كالدم في القلب الذي
يخفق !!

وأضاف ، مُتقدماً :

— لكن تربية دود القزّ ، هذه التي طالما روجت لها ، فإنّها تبدو
غير معقولة . صحيح نحن نكسب منها مالاً ، ولكنها صناعة أشبه
بصحراء لا واحة فيها !!

ههنا رفع الجبل — موسوي صوته صائحاً في أبي ، مُغتاضاً ، بعد أن
أستمع إلى حُملته على تربية دود القزّ ، قال :

— أيّ طنين هذا الذي صدر منك ، يا صاح ! كأنّي بك تُريد أن
تُدسّ أنفك في كلّ شيء . أفرغت ما في فمك لتؤكد أنك ثرثار
(وأضاف ، وهو يُرسل إلى أبي نظراتٍ دفاعية) تُرى ، هل يعضغ
العاملون في معامل المدينة الحديد ، أو الصُوف ، أو القطن الذي
يغزلونه ، أو هل يتذوّقون طعم الذهب ؟ .. إنهم لا يفعلون ذلك ،
ويتقاضون المالَ بدلاً عنه ... وإذا ما توافر المالُ هان كلّ شيء ، طعمه
ومذاقه !

فأجاب أبي ، وهو يتلعم :

— أجل ، يا سيّد يورغي ! بالمال تستطيع ان تحصل على
لبن النمر . لكنّ أرجو ألا تفهم كلامي فهماً خاطئاً . إنّ ما أعنيه أنّ
المرء حين يستمتع بنتاجه ينسى تعبّه ، ويُحسّ راحةً تنزل على قلبه ،
فيُغفو سعيداً ويستيقظ سعيداً .

فصاح الجبل — موسوي ، بعصبيّة ظاهرة :

— أيّ سعادةٍ وراحةٍ وخلاص ، تقول ؟ أم تُراك بدأت تُلقني موعظةً
دينيّة أيضاً ، يا سيّد جورج ؟ المال يُعوّض كلّ ما ذكرت ، فهو يُضفي
السّعادة على النّفس ، وكفّي !

فعاجله أبي :

— وهل كان الأقدمون محرومين من الرّاحة النفسيّة قبل اختراع المال
وأكتشافه ؟

فأكّد الجبل — موسوي :

— تغلغلّك في أعماق الماضي غباءٌ منك ، يا صديقي جورج .
عليك ، قبل كلّ شيء ، أن تصوّر العصر الذي فيه نعيش . نحن في
عصر المال ، والمال فقط . إنهم لا يردّون عليك التّحيّة إذا كان جيّك
خاوياً .

ثمّ ما يلبث أن يهدأ ، وترسم على وجهه بسمةً راضية ، وينظر بعيني
الرّجل الخبير إلى الفلاحين ، ويبدأ بالتّفلسف :

— أجل ، يا أصحابي ! قبل ختام هذا اللقاء المُمتع ، أرى أنّ من
واجبي أن أقول إنّ تربية دود القزّ هي الصّورة الحقيقيّة لمضمون حياتنا .
تصوّروا مرّة : أليس كلّ واحدٍ منّا شرّقة ؟ ألم ينسج كلّ منّا حوله

السُّتار الذي يحميه ويعزله ، ويحمله معه أخيراً إلى القبر مثل تابوت ؟ مَنْ
 ذا الذي يستطيع أن يفتحه ، ويفوصَ إلى أعماقِ أمر الله وأسراره ؟
 أجل ، نحن شَرانقُ نُسِجَتْ بألف خيطٍ وخيط . نتشكّل بَشْراً ، ولكنّا
 نمضي أشبهَ بـدُودَةٍ ونختفي ، ولا نترك سوى الذِّكرى الحميدة ، التي تلتصق
 في كلّ مكان مثل خيط الذهب ، أو خيط الحرير .

العم ميناس

I

كان « العم ميناس القهوائي » ، آخر مَنْ بقي مِنْ شُيوخ بلدتنا على قيد الحياة ، في سنوات الستينات .

رجلاً عملاقاً كان ، وذا سروال أسود فضفاض لم يكذ يُدله ، ولحية سوداء كثة مُشعّنة . وكان وديعاً ، راجح العقل ، فتاناً ، وطنياً ، يُضمر الحبّ والودّ لأهل كَسب جميعاً غير مُفرّقي بين طائفةٍ من الناس وأخرى .

كنْتُ ، في ذلك الحين ، في العشرين من عمري ، قد أنهيْتُ مرحلة الدّراسة الابتدائيّة ، ونزلْتُ إلى العمل مع أبي فأصبحت ساعده الأيمن ، في خدمة الفندق والعناية بالبستان .

وكنْتُ أهرؤى ، دون أن أعلن عن ذلك ، الغناء والشعر والثّقافة . ولم أكن أحبّ التّسكّع في الطّرفات وآرتياد المقاهي ، كما كنت أتجنّب التدخين وشُرْب الحمرة ولعب الميسر ، هذه العادات السيّئة التي تضرّ

بالصَّحَّة ... ومع ذلك أتذكّر مقهى العمّ ميناَس الكبير ، الذي يكتظُّ
برؤاده أحياناً حتى يُشبه قفصاً قد آحتوى بَشْراً !

ولقد كان يتفق لي أن أدلِّف إلى المقهى في بعض الأمسيات وأنا
عائدٌ من السُّوق إلى البيت ، قصد أن أمتع ناظرِي برؤية آله الموسيقية ،
المؤلَّفة من نوعٍ من الخشب قد شدَّت عليه أوتارٌ ثلاثة ، وأسمعه يعزف
عليها ويُغني أغاني حزينَةً ، يُظنُّ أنَّها من نظمه وتلجينه .

II

ذات مساء ، مررتُ بالمقهى ، فرأيتُ العمّ ميناَس ، بضخامته ،
جالساً على كُرسيِّه المعتاد ، يعزف ويُغني أغنيةً من أغانيه الحزينَةِ . حيثُ
وجلسْتُ بجانبه ، أصغيتُ إلى غنائه بآهتام بالغ . كان العمّ ميناَس يُحِبُّني
ويُسرِّه أن أجالسه ، وكان أبي من أصحابه وزُيِّنِه المُداومين . وكان اللحن
التركي ، الذي يُغنيهِ ، قديماً حتى إنَّه لا يُمكن معرفة المُلحِّن ولا ناظِم
الكلمات .

رأيتُهُ ، وهو يُغني في ذلك المساء بأنسجام ، وقد هيَّمن عليه الحزن ،
والدموع تترقق في عينيه ... ثمَّ ما لبث أن انفطرتُ منهما دمعاتٌ ،
آنحدرت وتغلغلت في لحيته الكثة ... وبعدئذٍ ران صمْتُ ، مثلُ صمت
القبور ، خيم على كلِّ ما حولنا . وأمَّا القهوائي فقد شدَّ آله على ركبتيه ،
وغرق في تفكيرٍ عميق ، فبدأ وكأنَّه يعبرُ قناطرَ أحلامٍ شفافَةٍ بعيدة .

ولم يسعني أن أقف مكتوف اليدين حيالَ تأثيره الشَّدِيد ، فقلت
أواسيه محاولاً التعرُّف على ما يشغلُّ باله :

— عم ميناَس ! أنا أيضاً أحبُّ العزف والغناء . إنَّ الدُّنيا ، دونَ

هَذَا الْفَنِّ ، صَحْرَاءُ قَاحِلَةٌ . وَالْمُوسِيقَا هِيَ الدَّوَاءُ الْوَحِيدُ لِمَنْ يَنْشُدُ لِلْقُلُوبِ
الطَّمَانِينَةَ وَالسَّكِينَةَ .

أَجَانِبِي ، وَهُوَ يُمَسِّدُ لِحَيْتِهِ وَكَأَنَّهُ اسْتَيْقِظَ مِنْ حُلُمٍ بَعِيدٍ :
— إِنَّهَا كَذَلِكَ ، يَا بُنَيَّ . وَلَكِنْ لَا تَنْسَ أَنْ الْمُوسِيقَا قَدْ تَقْلِبُ
الْمَوَازِينَ أحياناً ، فَتُسَبِّبُ الْأَضْطِرَابَ وَالْقَلَقَ فِي النُّفُوسِ .
وَرَشَفَ رَشْفَةً مِنْ فَنَجَانِ الْقَهْوَةِ أَمَامَهُ ، وَقَدْ أَطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ قَلِيلاً ،
وَأَخَذَ آلَتَهُ ، وَبَدَأَ يَنْقُرُ عَلَيْهَا لَحْناً بَدَأَ أَقْرَبَ إِلَى الْعُنْفِ وَالثَّوْرَةِ مِنْهُ إِلَى الْحَزَنِ
وَالْكَآبَةِ .

III

كَانَ الْعَمَّ مِينَاسُ مَرِحاً مُجَبِّاً لِلْمِزَاحِ ، وَلَكِنَّهُ مِزَاحٌ مُفَعَّمٌ بِالْحِكْمَةِ .
وَمَعَ أَنَّهُ قَلِيلُ الْكَلَامِ ، فَإِنَّ أَقْوَالَهُ تَأْتِي بَلِيغَةً ، تُسَاعِدُهُ فِي ذَلِكَ عَيْنَانِ
سُودَاوَانِ ، وَاسْعَتَانِ ، تُشْعَانِ بِالْمَعْرِفَةِ .

كَنتَ أَرَى أَيْ ، أحياناً ، فِي الْمَقْهَى ، بَيْنَ نَفَرٍ يَتَحَلَّقُونَ مَدْفَأَةً
حَطَبٍ كَبِيرَةٍ ، يَحْتَلِّ الْخَدَّادُ « الْحَاجِي أَرْتِينَ » بَيْنَهُمْ مَكَانَةً خَاصَّةً . ذَلِكَ
أَنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ يَفْرَغَ مِنْ سَرْدِ الْأَخْبَارِ الْيَوْمِيَّةِ الْعَامَّةِ ، يَسْتَرْسِلُ فِي الْحَدِيثِ
عَنْ مُغَامِرَاتِهِ فِي الصَّيْدِ ، وَكَأَنَّهُ يُرِيدُهَا أَنْ تَبْقَى خَالِدَةً فِي ذَاكِرَةِ الْجَمَاعَةِ !
وَتَرَفُّ ، فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ ، عَيْنَا الْعَمِّ مِينَاسَ ، مُنْطَبِقَةً ، مُنْفَتِحَةً ، كَمَا
لَوْ أَنَّ النَّعَاسَ يُغَالِبُهُمَا !

وَيَنْهَضُ سَرَكِيسُ بُولَادِيَانِ فَيُدْسُ قِطْعَةً مِنَ الْحَطَبِ فِي جَوْفِ
الْمَدْفَأَةِ ، ثُمَّ يُرْسِلُ نَظْرَةً مُتَنَصِّرَةً إِلَى عَيْنَيْ الْقَهْوَاتِيِّ النَّاعِسَتَيْنِ .

ثم إن بولاديان ومحشيكيان يستعدان للعبة « بلوت » ، ويتولّى دورُ
الحاسب لهما « الكوميسير » دونما ورقة أو قلم ، فذهنه مثل الإسفنج ،
يتمصّ ويهضم كلّ ما يُقال ويحفظ في ذاكرته كلّ ما يسمع من أحداثٍ
بتواريخها الدقيقة ، ويستحضر أسماءَ صِدِّئةٍ قد عَفِيَ عليها النسيان فهي
لا تخطر في بال أحد غيره ، مُلقياً الضوء الساطع على مشاعرٍ يلقها
الغموض !

ومع ذلك ، فإنّ الأنظار تتجّه ، كلّما خَرَب الأمرُ ، إلى
العمّ ميناس ، الفِدائيّ العارف ، فيُعطي رأيه الحاسم بكلمات موجزات .
وفي الرُكن المُعتم ، هناك ، يجلس السّنيور « كالاك » ، وأمامه قدحُ
العرق وصحن السّردين ، يجترّ ذكرياته البراقة أيام كان في أمريكا
الجنوبيّة .

IV

ويحكى لنا أبي قصصاً وسوّالف عن العمّ ميناس ، مُفعمةً بالتّضحية
والنّزعة الرّوحيّة السّامية ... يقول :

في عصر يوم شتويّ غائم ، جلس العمّ ميناس مُحتضناً ربابته ،
ومعه الحاجي أرتين ، يتهيأ للعزف في ليلته .

فجأة ، سُمع وَقْعُ أقدام ثقيلة تدخل المقهى ، وظهّر في الباب
رجلٌ غريب ، ألقى التّحيّة ، ثمّ أرتقى بجسده - الذي يُشبه الدّب - في
أول كرسّي صادفه .

نَحَى العمّ ميناس الرّبابة جانباً ، وردّ على الرّجل تحيته ، ثمّ أخذ
يتفحصه بآهتام ويقول :

— ما تشرب ، يا صاحبي : قهوة ؟ أم شاي ؟

تظاهر الغريب بأنه لم يسمع سُؤال القهوةاتي . قال مُعرّفاً بشخصه :
— أنا من نواحي « بازكا » ، يا عمّ ميناس . كُردِي الأُصل ، لكنّي
أعيش مع الأتراك ، الآن ، فأصبحتُ كُردِيّاً — تركِيّاً معاً . أتعامل مع
بيت « مقدسي » . أسمي « حِكْمَت » . سمعتُ أنّك موسيقيّ بارع ،
تنظم الشّعْر وتُلعّن « الشرقيّات » . ذاع صيتك حتى وصل إلينا . الناس
يتحدّثون عنك بالخير ويمتدحونك ، ويقولون إنّ في ربابتك ، ذات الأوتار
الثلاثة ، صوتاً حنوناً ، حزيناً ومُفرِحاً في آن ، ويؤكّدون أنّ عزف
العمّ ميناس يُليّن القُلُوب القاسية وملؤها سعادة . قلت في نفسي :
أذهب ، يا حكمت ، قبل عودتك للبيت ، إلى مقهى العمّ ميناس ،
وأستمع إلى بعض الشرقيّات ، وأُخذ لك أقداحاً من العرّق ، وأُرّخ
أعصابك ، وبعدئذٍ تابّع دربك ...

— قد تكون أحسنتُ صنْعاً ، يا رجل !

ثمّ أطلق العمّ ميناس ضحكةً باهتة صفراء ، متمنّياً لو أنّ الرّجل
يستعجل في مُغادرة المكان ، إذ لم يُرقّ له ...
وأضاف مُستدرِكاً :

— لكنّك ، يا صاحبي ، أسأتَ فهم ما سمعتُ عني ، فلا أنا
بالفنان ، ولا بالعازف البارِع الذي ظننتُ . أنا لستُ إلّا جَبَلِيّاً ، أنسُج
من خيالي ، وأنا في رُكني هذا ، ما تُسعفيني به قريحتي ، مُتخفّفاً من أعباء
الحياة ، فأننتم بذلك لنفسي منها ! كما أنّ الذين يستمعون إليّ هم قومٌ
بُسْطاء ، مثلي ... إنّي أعزف وأُغنّي لنفسي ، فمن أعجبه منهم ذلك مني
فأهلاً به ، ومن لم يعجبه فمع السّلامة !

هتف حكمت مؤيداً ما قال :

— حسن جداً ، يا عمّ مينا . لا تظنّ أنّي رجل متبجّج . فأنا ،
أيضاً ، فلاح مثلك ، « كلنا في الهوى سوا » ! والآن ، هات لي العرق ،
يا عمّ مينا ، ثمّ أسمعني ما عندك . ولا تردّني خائباً ... فنحن ، آخر
الأمر ، « أبناء عمومة » ، وإنّ لنا قلوباً تشعر بالموّدة !

قال العمّ مينا ، وهو ينهض :

— كلنا نحمل وراء ضلوعنا قلوباً . لكنّ كثيراً من الناس ما أنّ لهم
أن يعرفوا أنّ لهم قلوباً !

وتوجّه نحو المطبخ ... ثمّ عاد بزجاجة ، ليس فيها من العرق إلا ما
يملاّ قدحين إثنين ، ووضعها أمام الكرديّ — التركيّ :
— أشرب ، يا ابن عمّي ، بالهنا والشفا .

وعاد إلى كرسيّه .

وتناول ربابته ، واحتضنها بحنان . ورَفّت عيناه هُنيئة ... قبل أن
يغيب في عالمه الشفاف حتى الأعماق .

وكان ما قدّمه ، في تلك الأمسية مؤثراً جداً ، حتى إنّ العصفير ،
التي كانت قد بنت أعشاشها عند سفح الجبل خلف المقهى ، توافدت ،
تُزقّق وتُرفرف بأجنحتها وكأنّها تُريد أن تُمسّي بالخير على العمّ مينا ،
قبل أن تأوي إلى أعشاشها ناعمةً بهذهداته الخنونة .

وفاض المقهى بالحياة والنشاط .

فالحاجي أرتين أخذ يلفّ سيكارة من التبغ الثقيل ، ثمّ أشعلها ،

ليسحب دخانها بشراهةٍ إلى صميم رئتيه . ودخل الكوميسير ، وكرم ...
وأخيراً جاء الشريد اللثاء ، السنيور ، يحمل في يده علبة سردين ، وتوجّه
باسماً إلى رُكنه المُعتم ، بعد أن وضع في جيب العمّ ميناس نصف ما
كسبه في يومه .

V

بعد ما أنسجم العمّ ميناس في أغنيته الشرقية ، تحشّرج صوته
فجأةً ، وبدا كمن يختنق ... ثم شيئاً فشيئاً أخذ يعود إلى طبيعته الأولى ،
مُترنماً بأغنيةٍ شرقيةٍ أخرى تُردّد صداها في أرجاء المقهى الواسع .

ذهبت لحرب طُروس ، بعيدا

وقعت بدربٍ سعير ، شهيدا

فيحمل روحك ملكَ حنون

فطوبى لملك يحمي الحدودا !

أفرغ الغريب ثمالة قدح العرق في جوفه ، ثم نهض وصاح مُتثشياً
بصوتٍ شديد الحماسة :

— عشت ، يا عمّ ميناس ، عشت ! أفديك بروحي . ما كنتُ
أتصوّر أنّك فنّانٌ عبقرى إلى هذا الحدّ ! طوبى لك ، وألف طوبى . لقد
أثلجتُ صدري ، وصفّيتُ ذهني ، وخدّرتُ أعصابي بالذكريات
البعيدة . وحقّ ما يُقال : الدُّنيا صحراء قاحلة قبيحة دونَ عزفٍ وغناء !

وملأ الكأس ثانيةً ، وأخذ جرعةً ، وآبتسم ، ثم قال في لهجةٍ
خطابيةٍ :

— اللعنة على الذين أرادوا إبادة شعبِ فَنان ، مُسالَم ، مثلكم ...
اللعنة على النفوس المُتسلّطة الخبيثة التي هدمت الخير وهدّدت بُنيان
السّلام .

أعلن العمّ ميناس بِزّهو وفخار :

— كثيرون هم الذين هُمّوا بإبادتنا ، يا صاحبي ، ولم يتمكّنوا ،
لا ولن يتمكّنوا . نحن باقون ، وسوف نبقى ما دامت الدُّنيا باقيةً ، وفنُّ
الغناء قائماً . نحن باقون ما دُمنا قادرين على الابتكار والأزدهار .

ومرّت لحظات صمت ، غاب فيها القهوائي مع أفكاره هازاً رأسه ،
ثم سدّد نظره إلى الغريب ، وقال :

— لا تنسَ أنكم ، أنتم الأكراد أيضاً ، أردتم إبادتنا يوماً ، فقتلتم منا
خُلُقاً كثيراً وعذبتمونا طويلاً ... وما كان لكم أن تُصيخوا إلى أصواتنا
ونداءاتنا ... وقد جاء دوركم لثعانوا ، وتندموا ، ولكن بعد فوات الأوان !

أجاب الكردي :

— هذا صحيح .

قال ذلك دونَ وعي ، وقد رنّقت في خياله سحابةٌ من الحزن
والتأثّر . ثم أخذ من قدحه جرعةً كبيرة ونظر نظرةً عشواء ، وقال :

— لكنّ ما ذنب الشعب ، يا عمّ ميناس ؟ وأخصّ الفئات
غير المتعلّمة التي اعتادت أن تُنفذ الأوامر السّامية دونما تردّد !

أجاب القهوائي ، مُتمليلاً ، وهو يهرّش لحيته الكثة :

— هذا صحيح جداً ! الأوامر كلّها تصدر عن الكبار الكبار ،

الذين يستعيدون الصغار ، ثم يجعلونهم في أيديهم مناجلَ يحصدون بها
الأرواح ، وتُهرَق دماءُ الأبرياء ... آه من الأمر الظالم ! تَبَّأ لمن ختمك !

وبدا أن القهوائي قد اكتفى بما قال . فمسح عينيه الدامعتين ،
وأرسل نظره إلى السقف ، ثم آنعطف على ربابته فضمها إلى صدره ،
وأخذ يُغني الشرقية الثالثة ، التي أنهاها بهذه الكلمات :

دنيا الظلام ، عن المظالم لا تحيد
تَبَّتْ أيادِ دَمِّها الرَّبُّ الحميد !
قد ساحت الأدماء دوماً ، والحنى
آنى لقلبي الغضُّ من حَمَلِ المزيذ ١٩

ههنا توقّف بولاديان ومحشيكيان عن اللّعب ، يُصبغيان إلى الغناء
البديع . وشرع صانع السّلاح ، الحَجِّيُّ أرقي ، يلفّ سيكارة ثانية ،
وأخذ نفساً ومجّه من منخرينه ، مُصْعِداً دُخانه في فضاء المقهى فبدا
سحابة سوداء قد تجمعت عند السّقف .

أما كالاك ، فقد أنتفخ مثلَ مَلِكٍ كَسِبَ حرباً ، فراح ينسُج بسعادةٍ
أحلامَ الاستعداد لمعركةٍ جديدة .

أما الكوميسير ، وكرم ، الواقعان تحت وطأة خواطرٍ عابرة ، فقد بدأ
ينتظران الفرج القادم من الخارج ، وقد تأخّر .

والسنّور غيرُ عابئٍ بكلِّ ما يجري حوله . إنّه في رُكنه أمام صحن
سردينه وكأس عرقه ، لا يشتري الدنيا كلّها بقشرة بَصْلَة ، وبسمة
سعيدة ترّف على شفّتيه !

VI

فلَمَّا أفرغ الغريب آخرَ قطرةٍ من العَرَقِ في جوفه ، وقف
صائحاً :

— عظيم ، عظيم ! وكيف لا يذوب قلبي طرباً ؟! (وأستدرك)
ولكن ، يا آبن عمي ، أريد قليلاً من العرق ، أيضاً ، لو سمحت ،
فقدحان إثنان لا يثُلان ريقُ المرء . ليتك تأتيني بزجاجةٍ أُخرى ، مملوءة ،
فلا يَهْدِي عاصفةُ شَرَقِيَّاتِكَ غيرُ العرق (ويُضيف) روعي فِدَاءُ صوتِكَ
وفنِّكَ ومُحِيَّاك ! روعي فِداك ، يا عمّ ميناس !

ونَهَضَ القهوّاتي صامتاً ، وتوجّه إلى المطبخ . وهناك أشعل مصباح
اللوّكس ، وقد حلّ الظلام ، وعلّقه ... ثم أخذ يبحث على أرفف
المطبخ ، وفي دُرُوجه ، عن العرق ... ولمّا لم يعثرْ على شيء خرج يقول :

— آسَفُ ، يا صاحبي ، لم يبقَ عَرَقٌ . اكتفِ اليوم بما شربت ،
وتفضّلْ بالجِيعِ في يومٍ آخر . على كلّ حال لم يبقَ إلّا أن ننصرف إلى
بيوتنا ، ونُغْلِقَ الحُلَّ .

حاول الكرديّ إقناعَ العمّ ميناس :

— ماذا لو بحثت مرّةً أُخرى ، يا آبن العمّ ، في زوايا الحُلّ . أنا
لست من زبائنك المُداومين ، وإنّ ما شربته لا يفعل شيئاً . ثمّ كُنْ على
يقينٍ من أنّي سأدفع الحساب كاملاً .

قال عبارته الأخيرة بلهجة الواثق من نفسه .

فعاد العمّ ميناس إلى المطبخ يبحث ثانيةً ، لعله يجد مقدار كأسٍ

واحدة يُرضي بها الزَّبون . ولكنه أخفق في العُثور على شيء . ههنا
وَمَضَتْ في ذهنه فكرةٌ ، لحظةً لمح على الرَّف زجاجةَ الكُحول الأزرق ،
الذي يُشعل به مصباحه ، فأبتسم ببحث ، وعاد إلى الكردي يقول :
— لم يبقَ عندي سوى زجاجةٍ من « العَرَق الأزرق » ! فإن شئت
جئتُك بها .

فردَّ الغريب مُتَعَجِّباً :

— ماذا تقول ، يا ابن العمِّ ؟ هُذي أوَّل مرّةٍ أسمع بعرق أزرق !
يلدو أنه من النوع الثَّقيل جداً . على كلِّ حال أنا لست بَمُنْ يهتمُّون
بالألوان ، يا ابن العمِّ . لا يهتمُّني في العرق أن يكون أزرق ، أو أحمر ، أو
أخضر ، أو حتى أسود . يكفي أنه عرق !
أكَّد القهوائي مُتَهَيِّداً :

— إنه عرق ، لا تظنَّ ! عرق من النوع المُؤثِّر ، يُريح الفكر ويُنير
الرُّوح ، ويمنح شعوراً بالحَيَوِيَّة ، كميّاه البحر الزرقاء .

أعلن الكردي نافذ الصَّبْر :

— هيّا أَتَيتُني به ، حبّاً بالله .

— سَاتِيك به .

VII

وعاد العمِّ ميناس إلى المطبخ ، وهو يتمم بين شفّتيه بأغنيةٍ أرمنيّة
نظمها تَوْأاً :

عندي غرق نقي أزرق
نار جعلت الشراب يحرق
نور أضواء ظلام الأنفس
وضاعل من صلف العظيم الأحمق !
عندي غرق مثل بحر أزرق
يجعل الشراب كثائراً أهلك
يمشي طرباً كطير جليل
قد بلغ المراد المطلق !

هتف السنيور :

— بخر بخر ! قد نزل الوحي على قهواتنا اليوم !
ووضع ساقاً على ساق ، وسحب كرسيّاً ليضعه تحت إبطه يتكئ
ليه .

أعترض الحاجي أرتين :

— أي وحي تقول ؟ العمّ ميناس وحيّ كامل بحدّ ذاته !
وزجّ الكوميسير نفسه في الحوار :

— العمّ ميناس شاعر شعبيّ منذ زمان ، يا أصحاب ... فما له
للوحي ! لو أنتظر المرء الوحيّ لمات من الجوع . ثمّ إنّ الوحي رمز ،
ستزله المرء بإرادته ويُحقّقه مع مرور الوقت .

قال الكوميسير ذلك ، وهو يفرك عينيه كمن استيقظ من حلم
يذ .

ولا يتوانى السنيور كالاك عن المساهمة في الحوار ... فإذا هو يُغني ،
بصوتٍ أجشٍّ كأنه قادمٌ من عالمٍ قاتم ، أغنيةً أرتجل لحنها :

عمّ ميناس ! أنا لم أجذل عمّا مثلك
في أيّ مكان !
أنت الحبيب ، القريب إلى قلبي
أقولها بإخلاص ، صدّقني !
عندك عرق أبيض ، وأزرق ،
وربابة طويلة الزند
تُمتنع بها الجميع
أطال الله عمرك !

وعندما تعالت صيحاتُ الاستحسان ، كان العمّ ميناس يعود من
المطبخ وفي يده زجاجةٌ عاتمة اللون ، قدّمها للزبون وهو يهمس في أذنه :
— أفرح ، يا آبن العمّ ! قد وجدتُ لك هذه البقية الباقية من
التّبيد ...

وهنا ارتفع صوت الحاجي أرئين ، يقول وهو يلفّ سيكارة :
— سنيورُنَا المسكين يُغني ، أيضاً ! أمر لا يُصدّق ! وباللغة الأرمنية
الخالصة ، غير مشوبة بكلمة إسبانية !

ويتدخّل سركيس بولاديان :
— أجل ، أجل ، أرمنية صافية .

وينتقل من موضعه ، بمُرافقة محشيكيان ، إلى طاولة السَّنيور ،
ويجلس إلى جانبه ويضع يده على كتفه ، ويقول :

— حُيَّتْ ، يا سَنيور ! أَحسَنَتَ الغناء . ولا شكَّ أنَّكَ تملك كُنوزاً
في داخلِكَ . جِئْتَنِي عِدَّةَ مَرَّاتٍ وتَصَوَّرْتُ مُبْتَسِماً ، ولم تقلْ آتَنِي شَيْئاً ...
أَيْنَ كُنْتَ حَتَّى الْآنَ ؟ أَنَسَيْتَ إِذْ دَفَعْتَ قُبْعَتَكَ ، المُرْدَانَةَ بِرِيشَةٍ خَضِرَاءَ ،
إِلَى الْوَرَاءِ ؟

أَجَابَ أَحَدَهُمْ نِيَابَةً عَنْهُ :

— لَقَدْ كَانَ فِي أَمْرِيكَ الْجَنُوبِيَّةِ ، أَلَا تَعْرِفُ هَذَا ؟

وَتَبَسَّمَ السَّنيور بِسَعَادَةٍ .

وَرَفَعَ سُرْكَيْسَ صَوْتِهِ :

— سَنيور ! بَرَبِّكَ ، غَنِّ لَنَا الْأَغْنِيَةَ الَّتِي بَدَأْتَهَا . كَانَتْ مُمْتَعَةً جَدّاً .

وَأَيَّدَهُ الْحَاجِي وَالْكُومِيسِير :

— نَعَمْ ، نَعَمْ . غَنِّ لَنَا وَنَحْنُ نُصْغِي إِلَيْكَ أَحْسَنَ الْأَصْغَاءِ .

فَتَحَمَّسَ السَّنيور ، وَرَشَفَ مِنَ الْعِرْقِ رَشْفَةً ، وَأَزْدَرَدَ لِقَمَةً مِنَ
السَّرْدِينِ ، طَرَّيَ بِهَا حَلْقَهُ ، وَبَدَأَ الْغِنَاءَ :

عَمَّ مِينَاس ! عَمِّي الشَّاعِر !

أَنْتِ مُبْهِجٌ لِلْجَمِيعِ دَوَماً .

أَنَا لَمْ أَجِدْ أَبَداً مَكَاناً

الْمَسَّ فِيهِ مِثْلَ حَنَانِكَ الْأَبُويِّ ، صَدَّقْنِي !

فِي أَمْرِيكَ الْجَنُوبِيَّةِ ،

تَنَقَّلْتُ كَثِيرًا ، وَطَوِيلًا
لَكُنْ مِثْلَ قَرِينَتَا الْوَدِيعَةِ
لَمْ أَجِدْ أَبَدًا أَبَدًا !
عَمِّ مِينَا ! عَمِّي الشَّاعِر !
خَذْ رِبَابَكَ ، وَغَنِّ لَنَا
هَذَا قَدْ مَضَى مِنَ الْعُمُرِ يَوْمٌ آخِرُ
فَلْتَقْصِرْ أَيَّامَنَا بِحُبُورِ !
عَمِّي الْقَهْوَانِي ! عَمِّي الشَّاعِر !
تَنَاوَلْ رِبَابَكَ ، وَلَا تُسْرِفْ فِي تَمَتُّعِكَ
فَأَغَانِيكَ ، لِقَلْبِي الْمَحْطَمِ ،
دَوَاءً ، أَرْبِيجُ ، رَوْضَةً حَافِلَةً بِالْأَزَاهِيرِ !

هتف الحاضرون :

— عاش سنيورُنا ، عاش !

ويعصِف ، في قاعة المقهى ، التَّصْفِيقَ الْحَادَّ وَعِبَارَاتُ الْأَسْتَحْسَانِ .
لَقَدْ بَدَأَ الْمَكَانَ ، أَوَّلَ الْأَمْرِ ، أَشْبَهَ بِسَاحَةِ حَرْبٍ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ الْحَدِيثُ إِلَى
مُحَاطَرَةٍ بِالزَّجَلِ الشَّعْبِيِّ ... ثُمَّ أَنْتَهتِ الْقَاعَةُ إِلَى مَا يُشْبِهُ رَوْضَةً طُفُولِيَّةً
حَمِيمَةً .

يقول الكومييسير :

— يَا لِلْقَلْبِ الْمَحْطَمِ ، الْمُحْتَرَقِ ، الْهَائِمِ ، الشَّرِيدِ !

وههنا ينهض الحاجي أرتين ، وفي يده منديل أبيض ، يهزّه وكأنّه

يدعو الحاضرين إلى رقصةٍ جماعيّة ، ومن بينهم صاحبنا الكرديّ ، الذي
آنزوى جانباً وأمامه زجاجةُ التّبيد ، وبدا وكأنّه قاربٌ صغيرٌ تتقاذفه أمواجُ
بحرٍ مائج ، لا يهتمّ به أحدٌ ، إلّا من نظراتٍ عابرةٍ تقع عليه وتحوّل ،
دون أن تترك أثراً ، عن غريبٍ في ديارٍ لا يعرفه فيها أحد ، وبين قومٍ قد
أخذتهم النّشوة .

ويرفع كلاك يده ، طالباً إلى الحاضرين الصّمت ، ويبدأ خطاباً
ساحراً :

— حَيّيت ، يا أخ سنيور ! لقد أُجذّت وأستحققتُ الثّناء
المستطاب . عسى أن تُطلّع علينا ، بين الحين والآخر ، بمثل هذه الأغنية
الأرمنيّة الخالصة ، من ابتكارك ونظمك . أنت أمتعنا الليلةَ جميعاً ،
ليس ينقصك سوى ربابةٍ في يدك ، لتُصبح مُطربٌ كَسب في
المستقبل .

فيقول السّنيور متواضعاً :

— الله تعالى قادر ، سيتحقّق ذلك ، بإذنه ، يوماً .

يقول سرّكيس ، وفي عينيه الزّرقاوين ابتسامةٌ هادئة :

— طبعاً ، طبعاً ! بعد هذه السّنين كلّها من التّلمذة على
عمّ مينا ، أصبح إلزاماً عليك ان تغدو مُطرباً !

فقال كلاك ، وهو يُحدّق إلى عينيه :

— طيّب ، وماذا تعلّمنا نحن من العمّ مينا ، وقد داومنا على
نُصُور إلى مدرسته طوال هذه السّنين ؟

وتشجع محشيكيان يقول :

— لم نتعلم غير اللعب بالورق ، نقتل به الوقت ، وشرب العرق
والقهوة والنعنع !

VIII

ويخرج العمّ ميناس من المطبخ ، وهو يسعل سعالاً حاداً ، وبين يديه
صينيةٌ عامرةٌ بأكواب القهوة والشاي ، وراح يُوزّعها على الزبائن ...
حتى وصل إلى السنيور ، فوضع يده الثقيلة على كتف هذا الشاب
المتعب ، وقال :

— عشت ، يا ولدي ، يا سنيور ! لقد أصغيت إليك . أشكرك
على ما ثكّنته لي من محبة . آستمر في أرجال الكلمات وغنائها ، فالدنيا
لا تُطاق دون غناءٍ وسرور . (وأردف) على كلّ حال ، يا سنيور ، أنا
هرمت ، وبلغت من الكبر مبلغاً ، فلتكن ربّتي لك بعد رحيلي ، وتابع
من بعدي ، وتكن المهّيمن على حيوية جبالنا .

فأحتجّ السنيور :

— ماذا تقول ، يا عمّ ميناس ؟ الدنيا حافلةٌ بالمفاجآت ، والأعمار
بيد الله . والقدر لا يُفرّق بين كبيرٍ وصغير ، بين عليلٍ ومُعافى !
قال ذلك ، وتكرّع ثُمالة كأسه ، ثم غرق بين أستار حياته المكثرة
المعكّرة .

وقد تحقّق ما قاله السنيور : فقد وقع طريح الفراش إثر حادث ، ثمّ ما
لبث أن فارق الحياة قبل غيره من الشيوخ .

IX

وأما العمّ ميناس ...

لقد ظلّ يُتابع العزف على ربابته ذات الأوتار الثلاثة ، في المقهى كلّ مساء ، ويُردّد أغانيه الشرقيّة الحزينة ، مُؤكّداً كلماتها ، هذه التي تتفتح في النفوس مثلما يتفتح الربيع مع نسباته العليلة ، التي تُهب فتعش البراري ، والجبّال ، وتتهادى على هباتها باقات الأزاهر ، والحشائش الخضر ، لتضمي على غاباتنا الكثيفة الخضراء وجبالنا الفيضيّة جوّاً من البشر والحبور .

العم هوسيب

I

كان العم « هوسيب » ، وهو من جيراننا الأقربين ، شيخاً هَرِمًا يُشارف أواخرَ عمره ، وأنا ، في ذلك الحين ، فتى يافع ، أذكره اليوم أشبه بطَيفٍ عابر في حُلُمٍ قديمٍ قد آنحرف في أعماق نفسي ، بهيئته وبكلِّ ما كان يصدر عنه من تصرفات .

كان رَبَعَ القامة ، يلبس السَّروال الأسود لا يُغيِّره ، وطربوشاً أحمرَ يعلو وجهه الأحمر القاني . وكان ذا أسنانٍ بيضاء نَضِيْدَةٍ ، لا يُرى إلَّا وسُبحَةَ كبيرة في يده تَيمُّ عن منزلته وعمَّا يتمتَّع به من خِبرة في الحياة .

كنت ألتقي به ، أحياناً ، في ساحة البلدة ، أو في السُّوق ، أو قريباً من مقهى « نوفير » ، مُعلِّقاً سُبحته العظيمة في معصمه ، وهو يتحدث بأنفعال مع واحدٍ تَمَنَّ أشترك في الحرب العالميَّة الثانيَّة . وربما صادفته قريباً من بيتنا ، يتحدث بصوته الجَهْوَريِّ إلى أبي ، أو أُمِّي ، عن حُدود

أرضر له آحترقت ، وتركت في قلبه لوعةً وحزناً ... فهو يتناقش كبحر
عاصفٍ مائج يلفظ من أعماقه جثّةً مُتفخخة .

لم أكن أعرف شيئاً عن ماضيه ، ولا عن طبعه ومزاجه . ولكن كان
يتفق للأسرة أن تأتي على ذكره في البيت ، فيُشار على الأخص إلى زوجته
« إستير » (شلار) ، التي كانت المرأة الوحيدة في حينها ذات الرداء
الأسود ، والتي عُرف عنها بأنها تُقيم الدنيا وتُقعدّها !

وكان بُستان العمّ هوسيب ، القريب جداً منا ، عامراً بأشجار
الثوت والتين والعنب ، هذه التي تجتذب إليها عصافير التين طوال فصل
الصيف ، فتجلب المتعة في صيدها ، ثم في شبيها ، وفي إسعاد المعدة بها .

وكان ما يشغلني ، في تلك الأيام ، حتى إنه ليعز عليّ النوم والراحة ،
أن أحمل بُندقيتي على كتفي ، وأمضي مُتسللاً إلى بستان العمّ هوسيب ،
وهناك أمارس هوايتي في الصيد .

وكان إطلاق البارود يستلّف انتباه أصحاب البستان ، فيخرج إليّ
العمّ هوسيب وزوجته ، ويبدأن بتوجيه الشتائم واللعنات ، هذه التي
كانت تصدر عن السيّدة إستير أحياناً « شتائم منظومة » ، كأن تُسبّي
مثلاً فتقول :

أبعد عنا ، يا أبن الكلب !

هل هذا ميدان حرب ؟

أذهب ، فارّقنا في الحال

أو نضربك بالثعالب !

وتختتم ذلك بعبارة غير منظومة :

— فارِقْنَا ! فلحم عَصافيرنا لا يُؤْكَل !

وما تكاد تفرغ من منظومتها ، حتى يَنبِرِي العمّ هوسيب مُكِمِلاً :

أذهب إلى الحَجم ، يا قَلِيلَ الإحساس !

لو أَمسَكْتُ بك ، يا أَبْنَ النَّاسِ ،

لجسَّتْكَ في القَبْرِ نَحْتِ الدُّرياس !

ثمَّ يَبرُزُ لي ، من بين الحُضرة ، شَبَحان أسودان مثل شيطانين ،
يُريدان الإمساك بي لَحَنَتِي ، ولكِنِّي أَهْرَبُ بِخَفَّةٍ تَعْجِزُ مَعَهَا أَقْوَى
السَّواعد عن الإمساك بي .

II

في تلك الأَيَّام ، كما في يومنا هَذَا ، يَبدأ القَرَوِيُّونَ بِعَمَلِ الدُّبْسِ من
العنب في أواخر فصل الخريف . إِنَّهَا أَيَّامٌ مُقدَّسة ، ولا يَفوتُ بيتاً أن
يحتفل بها ، ولعلَّ الاحتفال بها لم يكن يَقِلُّ رَوْعةً عن أَيَّامِ الأعياد
التَّقْلِيدِيَّةِ .

كان النَّاسُ يَتَجَمَّعونَ حولَ قَدِيرٍ كَبيرة تُسمَّى « اللَكَن » ، قد
أُقيمت على أَثافي فوق حُفرةٍ عميقة تُوقَدُ فيها النَّارُ مثل جَهَنَّمَ ، وَيُعْلَى فيها
عَصِيرُ العنب حتى يَنْضَجَ ، وليس يُتْرَكُ العمل فيه ليلَ نهار ، تحريكاً
ووقداً ، حتى يَصْبَحَ دَبْساً .

والدُّبْسُ ، عندنا نحن القَرَوِيُّينَ ، هو المُوَونة الأولى لِلشَّتاءِ ، وهو أَهمُّ
غِذاءٍ للجميع . كُنَّا نُنْمُونُ ، كُلَّ عامٍ ، تَنَكَّةً من الدُّبْسِ وأُخرى من زيت
الزَّيتون ، وتيناً مُجَفَّفاً ، وكيساً من البُرْغل ، وأكياساً من القمح

والطَّحِينَ ... وكلُّ مَنْ توافرتْ له هذه المؤونة حُقَّ له أن يمشي في القرية مُختِلاً ! وكان ثَمَنُ يَحُقَّ لهم أن يَحْتَالُوا ، في بلدتنا ، « هوسيب هوسييان » ، الذي فاح عيبرُ دِيسه ، يوماً ، في فضاء حِينَا ، فَاجْتَذَبَتْ رائحته الرِّكية الأولادَ والفتيان .

وأذكر أَنَا أَتَّفَقْنَا ، في ذلك اليوم ، على أن نتوجّه إليه ، لنأكل ما يجود علينا به من رَغْوَةِ الدِّبْس ، على أن نذهب في الليل ، وقد حلَّ الظَّلام ، مُلْتَمِينَ حتى يتعَدَّرَ تعرُّفه علينا نحن مَن دَأَبْنَا على أصطياد العصافير في بستانه ، ولو عَرَفْنَا لثار علينا وحرَمْنَا من الاستمتاع بأكل دِيسه ! فكان علينا أن نزوي في رُكنٍ ، مُستسحين الفرصة للتسلُّل إلى القِدر ، ونحن في العتمة ، نُراقب منظرها الرائع ، وهي تُغلي وتُفور في فناء بيت العمِّ هوسيب !

كان الناس ، من رجالٍ ونساء وأطفال ، مُتَجَمِّعين حول القِدر الكبيرة ، تحت ضوء البدر الفُضِّي الإلهي ، والنُّجُومُ تتلألأ في السماء ، ينتظرون الرَغْوَةَ . وينهض « فوسكان » ، قريبُ العمِّ هوسيب ، ليُلْقِمَ النارَ عُوداً من السُّنديان ويعود إلى مكانه .

هي ذي بُحيرةُ القِدرِ تُرغمي وتُزِيدُ ، وتنطلق منها خُيُوطٌ رفيعةٌ من البُخارِ في باقَاتٍ ، تَخَالُها أَفَاعِيٌ تَلَوِيٌّ مُتصاعدةٌ ، تاركةٌ تحتها جيشاً من الحُبابِ النُّحاسيةِ تتصارع وتَقْتِيلُ ويُفني بعضها بعضاً ، ثُمَّ تتوالد مسعورةً ، وتعود إلى الاقتتال في ضَجَّةٍ من صُراخٍ وعويل !

وينتصب العمِّ هوسيب ، الآن ، حاسرَ الرَّأسِ ، مُشْمِراً عن ساعديه ، أمامَ القِدرِ العظيمة ، بصمتٍ وانتباه . ويُتمِّم وهو يرُسِّم ، بين الفينة والأخرى ، مثلَ كاهنٍ في جِدَادٍ ، علامةَ الصَّليبِ على الحجارةِ

التي يفوح منها عَبَقُ الْبُحُورِ ، وتَقَبَّعَ تحتها القديسيَّات والذكريات التي تنبعث حيَّةً ، مُقَشَّعِرَةً في طَرْفَةِ عَيْنٍ ، تَيَّزَ وتُفْرِقِعُ بهدوء .

III

كان جارنا ، العمّ هوسيب ، غَيْرَ هَيَّابٍ ، حادَّ البصر نشيطاً . وأُعرف أَنَّهُ أَشْتَرَك في الحرب العالميَّة الثانيَّة ، وأظنَّ في الأولى أيضاً ، جُنْدِيّاً مُقَاتِلاً .

وقد حكى لنا أبي عن بعض مآثره وبُطُولاته ، هذه التي شاهدتُ بأمِّ عيني واحدةً منها يوماً ، وكانت بُطولةً خطيرةً ، مارسها مع بعض الحيوانات ، الطَّائِرِ منها ، والقافز ، والزَّاحِف ، فقد كان يستطيع القضاء على أي نوعٍ منها ، حتى باتت الأفاعي والسُّحالي والثعالب تتوارى حين تلمح ظِلَّهُ . فبداه تَبْدُوَانِ مثْلَ كِمَاشَةٍ من حديد ، وقدماه مثْلَ مَطَارِقَ فولاذيَّة . يَمْسِكُ بالسُّمَيْنِ من العصافير حيَّةً بواسطة فُرُوع الدَّبَقِ ... والْوَيْلُ لِكُلِّ الْوَيْلِ للطَّيْرِ الذي يقترب من دَبَقِهِ ، ولغير الطَّيْرِ أيضاً !

ذات يوم ، أخذتُ أبحث ، في التَّاحِيَةِ الجَنُوبِيَّةِ من بُسْتَانِهِ الفسِيحِ ، عن طيرٍ وقع تحت شجرة تينٍ وارفقة الظُّلَالِ . فلمَحْتُ ظِلَّ العمّ هوسيب ، المَلُوكُونِ . كان يُمَسِكُ بيده عودَ تَوْتٍ ، رَفِيعاً مَرِناً ، يُلاحق به ثُعْبَاناً ، قد نجح في الاندساس في جُحْرِهِ ظانّاً أَنَّهُ نَجَا . لكنَّ العمّ هوسيب يتعقبه ، وقد بدا كما لو أَنَّ الدَّمَّ يَنْفِرُ من عَيْنِيهِ . رأيتُ طيفه العَظِيمِ أَمَامِي ، يَهْزُ العَصَا بيده بعصبيَّةٍ ظاهرة . ثُمَّ انْحَنَى ، رَاكِعاً على الأرض ، ودَسَّ العَصَا في الجِحرِ ، وأَبْتَسَم ... ثُمَّ مَدَّ يده الحديديَّةَ إلى الجحر !

أَتَتَابَتْنِي قَشْعِرِيرَةٌ هَزَّتْ بَدَنِي حَتَّى بَلَغْتَ أَدَقَّ شِرْيَانٍ فِي قَلْبِي ، ثُمَّ
أَعْتَرَتْني بُرُودَةٌ لَمْ أَشْعُرْ بِمَثَلِهَا حَتَّى فِي أَيَّامِ الشَّتَاءِ ، عَلَى حِينِ كَانَتْ
الشَّمْسُ تَتَوَسَّطُ كَيْدَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَطِشْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى قَطْرَةِ مَاءٍ .

بعد بِسْمَةِ الْعَمِّ هُوسِيْب ، غَيْرِ الْعَادِيَّةِ ، أَنْطَلَقْتُ مِنْ بَيْنِ شِدْقِيهِ
ضَحِكَةً شَيْطَانِيَّةً مُجْلِجِلَةً . رَأَيْتُهُ وَقَدْ أَمْسَكَ بِذَيْلِ الْأَفْعَى الْعَظِيمَةِ
السَّودَاءِ ، يَسْحَبُهَا مِنْ مَخْبِئِهَا . مَضَتْ ثَوَانٍ ، وَالزَّاحِفَةُ تَنْجَرُّ شَيْئاً
فَشِئْئاً ، بِالرَّغْمِ مِنْ مُقَاوَمَتِهَا الْمُتَفَانِيَّةِ ، وَالْحِجَارَةُ تَصْطِغُ بِدَمِهَا ...
وَتَخْرُجُ ، كَجَذْرِ شَجَرَةٍ يُسَلُّ مِنْ بَيْنِ التُّرَابِ ، مُسْتَسْلِمَةٌ لِرَغْبَةِ
الْعَمِّ هُوسِيْبِ الْقَاتِمَةِ .

لَمْ أَتَمَالِكْ نَفْسِي مِنْ أَنْ أُطْلَقَ صَبِيحَةَ إِعْجَابٍ :

— يَا لِلْفَظَاعَةِ !

وَنَهَضْتُ مِنْ بَيْنِ الثَّبَاتَاتِ الْكَثِيفَةِ ، نَاسِياً أَنِّي صَيَّادٌ لِلْعَصَافِيرِ
غَيْرُ مُرْغُوبٍ فِيهِ !

وَرَحْتُ أُحَدِّقُ إِلَى الْمَشْهَدِ ، مُنْجَذِباً إِلَيْهِ ، لَا يَرِفُّ لِي جَفَنٌ ، وَأَنَا
أَرَى الْعَمِّ هُوسِيْبَ ، وَقَدْ أُنْثِمَ السَّيْطَرَةُ عَلَى الْأَفْعَى ، وَرَاحَ يَهْزَأُ هَزْأً عَنِيفاً
فِي الْمَوَاءِ ، حَتَّى تَرَاحَتْ ، فَهِيَ فِي يَدِهِ أَشْبَهُ بِمِجْرَقَةٍ بَالِيَةٍ ، نَحْسَبُ أَنَّ
عَمُودَهَا الْفَقْرِيَّ قَدْ تَحْطِمُ فَقْرَةَ فَقْرَةٍ ، فَلَا حَوْلَ لَهَا وَلَا قُوَّةَ .

وَيَقُولُ الْعَمِّ هُوسِيْبُ :

— نُخْذِئُهَا !

ويَحْدُ حَجَرٍ يَفْصِلُ الرَّأْسَ عَنِ الْجَسَدِ .
ويَحْمِلُ جَسَدَ الْأَفْعَى لُقْمَةً سَائِغَةً لِكَلْبِهِ .

IV

وَيُشَاهِدُ أَبِي ، فِي الْخَنْدَقِ الضَّيِّقِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ بُسْتَانَا وَبَيْنَ
بُسْتَانِ جَارِنَا « الْمَقْدِسِي » ، فِي يَوْمٍ رِبْعِيٍّ دَافِئٍ ، ثُعْبَانَيْنِ أَسْوَدَيْنِ مُلْتَقَيْنِ
مُتَلَاحِمَيْنِ ، فِي عِرَاكِ تَقْشَعِرُّ لَهُ الْأَبْدَانُ . فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ أَسْرَعَ فِي
طَلَبِ النَّجْدَةِ مِنَ الْعَمِّ هَوْسِيْب . وَالْحَقُّ أَنَّهُ كَانَ عَلَى أَبِي أَنْ يَسْتَدْعِي ،
لِهَذَا الْمَشْهَدِ الرَّائِعِ ، الْمَصُورَ « سَرْكِيْسَ بُولَادِيَان » لِيَلْتَقِطَ صُورَةَ نَادِرَةٍ
جَدِيدَةٍ بِأَنْ تُذَيِّعَ صَبِيئَتَهُ ، عَلَى جَنَاحِ الرِّيحِ ، فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ ... وَلَكِنْ ذَلِكَ
مَا فَاتَ أَبِي وَهُوَ فِي أَضْطِرَّابِهِ !

وَصَلَ أَبِي إِلَى بَيْتِ الْعَمِّ هَوْسِيْبِ مَبْهُورَ الْأَنْفَاسِ . وَبُصْعُوعِيَّةٌ بِالْغَةِ
تَمَكَّنَ مِنْ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ أَمْرَ الثُّعْبَانَيْنِ بِعِبَارَاتٍ قَصِيرَةٍ مُوجِزَةٍ ... ثُمَّ يَمُمُ
وَجْهَهُ شَطْرَ بَسْتَانِنَا .

الْمُتَخَصِّصُ بِقَتْلِ الثُّعْبَانَيْنِ مُسْتَعِدٌّ دَوْمًا . تَنَاوَلَ عَصَاهُ ، السُّحْرِيَّةُ ،
مِنْ تَحْتِ الْحَصِيرِ ، وَخَرَجَ يَتْبَعُ أَبِي .

فَلَمَّا وَصَلَ الرَّجُلَانِ إِلَى ... سَاحَةِ الْوُغَى ، دُهِشَ أَبِي تَمًّا رَأَى :
الثُّعْبَانَانِ مُتَعَانِقَانِ بِسُكُونٍ ، اللِّسَانُ يُدَاعِبُ اللِّسَانَ ، وَالذَّيْلُ مُلْتَصِقٌ
بِالذَّيْلِ ... فَهَمَا يَنْعَمَانِ فِي جَنَّةِ الْحُبِّ الْعَرِيزِيِّ !

فَمَا كَانَ مِنْ أَبِي إِلَّا أَنْ رَفَعَ رَأْسَهُ وَيَدِيهِ نَحْوَ السَّمَاءِ ، وَقَالَ بِصَوْتٍ

أَقْرَبَ إِلَى الصُّرَاخِ مِنْهُ إِلَى الْإِبْتِهَالِ ، وَهُوَ يَفْرِكُ عَيْنِيهِ مُحَاوَلًا جُهْدَهُ أَنْ
يَسْتَيْقِنَ مِمَّا تَرَى عَيْنَاهُ :

— يَا إِلَهِي ! أَعِرَّاكَ هَذَا ، أَمْ هِيَ مُمَارَسَةٌ لَطْفُوسِ الْحَبِّ ۱۹

قَالَ الْعَمَّ هُوسِيْب :

— يَا صَدِيقِي ! لَا تَتَأَثَّرَ بِعِرَاكِ الْأَفَاعِي ، وَلَا تُحِبَّهَا !

وَيَنْظُرُ ، بَعِيْنِي صَغِيرٍ يَنْبَعَثُ مِنْهُمَا الشَّرُّ ، وَيُضَيِّفُ :

إِذَا ظَنَّنَا هَذَا حَبًّا ، فَسَوْفَ يُمَزَّقُ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخِرَ بَعْدَ قَلِيلٍ ! فَإِنْ
حَسِبْنَاهُ عِرَاكًا ، فَلَنْ يَلْبِثَا أَنْ يُحَقِّقَا غَايَتَهُمَا مِنَ الْحَبِّ عَاجِلًا أَوْ آجَلًا !

أَجَابَ أَبِي :

— وَآتَى لِي أَنْ أَعْلَمَ ۱۹

ثُمَّ أُرْتَجِحُ عَلَيْهِ ... وَلَكِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَرِدَ عَلَى تَسْأُلِ
الْعَمِّ هُوسِيْب . فَقَالَ هَذَا الَّذِي خَطَرَ عَلَى بَالِهِ وَأَنْطَلَقَ لِسَانُهُ يُعَبِّرُ عَنْهُ فِي
شَيْءٍ مِنَ التَّرَدُّدِ :

— فَمَا مَعْنَى كَلِمَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ إِذَنْ : « كُونُوا كَالْحَيَّةِ عَمِيقِي

الْمَعْرِفَةِ ، وَكَالْحَمَامِ أَغْبِيَاءَ ! » ؟

فَيَقُولُ الْعَمَّ هُوسِيْب ، وَهُوَ يَهْزِرُ رَأْسَهُ :

— أَقُولُ الرُّسُلُ الْقُدَامَى ... مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّا إِنْ مَلَكْنَا مَعْرِفَةَ الْحَيَّةِ

الْعَمِيقَةِ ، وَغِبَاءَ الْحَمَامَةِ الْأَلْيَفَةِ ، فَالْوَيْلَ لِمَا يَحْدُثُ لَنَا ، وَلَقُلُوبِنَا !

فَيُجِيبُ أَبِي ، شَارِدَ الذَّهْنِ :

— لا أعرف ! (ثم يقول جاداً) والآن ، ماذا قرّرت في شأن
الثّعبانين ؟ أنظر إليهما كيف يتلوّيان ويصُفّران كالآبالسة . أخشى أن
يزحفا ويتسلّلا إلى مكانٍ قريب ، فيُصبحا كارثةً في حيننا !

يقول العمّ هوسيب :

— لا تقلق ، يا جاري العزيز . فقرارى لا يتغير !

وأخذ يقترب من الثّعبانين ، حتى غدا فوق رأسهما . وفي
غمضة عين ، وبحركةٍ خفيفةٍ بارعة ، من عصاه ، كان صوتٌ ، قد
صدر عن العصا ، موسيقىً رخيماً ، فنزل على قلبي برداً وسلاماً !

ونزلت الضربة ، مفاجئةً كالصّاعقة ، على الثّعبانين ، فزادت في
طول لسانيهما الأحمرين ، الممتدّين ، وأستدار الفمّان ليكشفّا عن أنيابٍ
فيها السّم الرّعاف .

ويصرّخ العمّ هوسيب في الثّعبانين :

— أيتها الأفعى ! يا قليلة الحياء ! يا مُخادعة !

وأنهال عليهما ، كالحُمور ، يُوسِعُهُما ضرباً ، والشرّ يقدح في
عينيه ، ويتطاير ، قادراً على أن يحرق كلّ ما يعترض طريقه ، يبتلعه
ويُفنيه !

وأني يتابع هذا المشهد الرّهيب ، الذي تُضفي عليه شمسُ الرّبيع
لمعناً وحركةً يعجز عنها الوصف .

بدا الثّعبانان في أوج غضبهما على هذا الغريب الذي تجرّأ ففرّق
بينهما في لحظة الحبّ . وإذا هما يفتحان عليه جهتيّ حرب : فيرفع كلّ

منهما رأسه في شموخ مُتحدِّياً ، مُتخذاً وضع المحارب المُقدام ،
ومُحاولاً طعنه في جنبه وقتله مثل كلب . ولكنهما ، الأحمقَين ،
لا يعرفان أنَّ هذا الأدمي الذي يُجابههما هو جارنا العم هوسيب ، القادر
على أن يمنع حتى العفاريث عن الالتقاء على سرير الزوجة !

ثم لم يكن ثمة بدٌّ من انتظار ضربة القدر الحاسمة ، التي تُشبه صوت
طلقة بندقيّة .

وحانت اللحظة .

وآرتد أبي إلى الوراء مشدوهاً ، وأطلق صرخة لا يعرف نوعها : لقد
رأى الثعبانين مُعلّقين من ذيلَيْهما بين أصابع العم هوسيب فكأنها
المُصيدة . وهو يهزّهما هزّاً عنيفاً أفقدهما الوعي ، فأغمضا العيون ،
وأنسحب اللسانان الأحمران فأنطبق عليهما الفمان ... ثم سقطا على
الأرض ، تحت أشعة الشمس ، وسكنا ، وكأنهما في سباتهما الشتوي .

وصرخ العم هوسيب :

— خُذاها ، يا أبني الأبالسة !

وهزّس بحجر رأسَيْهما ، كما لم يفعل قبله بطلنا الأسطوري في القرن
الثالث « فهاكن » مع أفاعيه . ثم رماها بأزدرأ تحت قدمي أبي .

وقال :

— هكذا يجب أن تتعامل مع الأفاعي ، يا جار . خُذها نصيحة
منّي : لا تضعف ، ولا تهاون ، ولا تضطرب أمام الأفاعي ، خصوصاً
منها تلك التي تسمير على رجلَين من بني البشر !

فُجِيبِهِ أَبِي ، مُسْتَغْفِراً وَهُوَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ الْمُتَنَاقِثَ عَلَى جَبْهَتِهِ :
— ماذا ، يا عَمَّ هوسيب ؟ ما كنت أعرف أنك قاسي القلب إلى
هذا الحد !

ثمَّ نظر إلى جَنَّتِي الثَّعْبَانِينَ بِحُزْنٍ ، وَهَزَّ رَأْسَهُ ، قَائِلاً :
— كان المسكينان في طريقهما إلى الحبِّ والزَّواج ليبدأ حياتهما
الجديدة ... فجئت أنت وهدمت سعادتهما ، وحكمت عليهما بالموت .
— لا حاجة بنا إلى سعادةٍ سامَّةٍ ، على وجه الأرض !

قال العَمَّ هوسيب ذلك بغضب ، وهو ينفُضُ الغبار عن سرواله
بطرف عصاه الميمونة الرفيعة . وأضاف مؤكِّداً أقوالاً عميقة المعنى :
— أسمع ، يا عزيزي ! تُرَى ألا يشعر كلُّ واحدٍ مِنَّا أن تحت جلده ،
وفي عروقه ، وفي دورة دمه ، مثل هؤلاء الظُّلَمَةِ القساة السَّامِينَ ؟

أجاب أَبِي وهو يفرك جبينه بهُدوءٍ :
— إِنَّ السَّمَّ يُسْتَخْلَصُ ويرتفع ثَمْنُهُ في عالمنا ، اليوم ، يا جار ! إِنَّهُ
التُّرْيَاقُ الوحيد لآلام النَّاسِ الْآنَ ، وَالْمَسْكِنُ الوحيد لكلِّ أوجاعهم .

فردَّ العَمَّ هوسيب :

— البحث عن السَّمِّ أمر مختلف ، ويتناقى وموضوعنا ، ولا يهْمُنَا في
شيء . وَلَكِنِّي أَحْذَرُكَ ، بعد كلِّ شيء ، من أن تُأْمَنَ الْأَفَاعِي .
فَأَفْوَاهُهَا ، وَأَنْيَابُهَا ، مَمْلُوءَةٌ بِالسَّمِّ . لَا تُصَدِّقُ الْقُبَلَاتِ الْكَاذِبَةِ . إِنَّهَا
تُقَيِّدُنَا ، وتَقْوَدُنَا نحو الظُّلَامِ الْأَبَدِيِّ !

V

بعد كَرَّ الأيامِ ومَرَّ السَّنين ، هذه التي تتراوح بين اليُسْر والعُسْر
ولا نكاد نشعر بها ، وقع العمّ هوسيب طريح الفراش . وأخذت أحواله
تزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

ذهب أبي لعيادته . وما إن سمع العمّ هوسيب صوته حتى عرفه ،
وفتح عينيه متعشاً ، قال :

— إيه ، جورج ، يا جار ! هأنذا أمضي ، وقد تبدّث الدنيا لي
سجناً عملاقاً أسودّ يحنوني . أطيافٌ عجيبةٌ تُحوم فوق رأسي ، تسخر
مني ، وتضحك مُكشّرةً عن أنيابها . إنها تستعدّ لأبتلاع رأسي ، مثلما
كنت أفعل بالأفاعي فيما مضى .

وآرتفع صوته باكياً :

— الدنيا فانية ، وخاوية من كلّ شيء .

وآمحدث دمعتان ، من عينيه الغائرتين ، فوق خديه :

— لا تنزعجوا ، لا تقلقوا ، لا تتحاسدوا . عيشوا معاً بفرح
ومحبة ، وليكن التسامح نبراسكم . وليساعني من آذيتهم وأغلظت لهم في
القول .

ولم يُنجم أبي ، حتى في هذا الموقف المحزن ، عن إطلاق لسانه
بالدعابة . أقرب بكرسيه من فراش المُختَضِر ، وقال :

— أنت راحل إذن ، يا عمّ هوسيب ؟ رافقتك السَّلامة ! أذهب ،
وسلم لي على كل الأموات الصالحين الذي كانوا على وجه الأرض !

أذهب ... لكن أسمع : إن لم يُعجبك « الجوّ » هناك ، ولم يكن على
مِزاجك وأنت بين مُعذّيك ، فلا تتأخّر في العودة إلينا ، لتعيش بين أهلك
وعلى سفوح جبالك ، وتبدأ حياةً جديدةً غنيّةً بالنتاج الوفير ! أجل ، غد
إلينا ، مثلما تعود العصافير السُمينة في الصّيف ، ومثلما تُورق أشجارُ
التّين التي تُعرّث ، أو تعود الكرمة إلى الحياة بعد موت في الشّتاء ، ومثلما
يعود أريج الدّبس إلى الانتشار في الحريف على مدى الزّمان !

فقال العمّ هوسيب بصوتٍ مرتعش وإن حتى لا يكاد يُسمع :
— وكيف ذلك ؟ إن أحداً لم يفلت من قبضتهم ، قبل اليوم ، أو
يتمكّن من العودة ؟
فشجّعه أبي :

— حاول أنت أن تجتاز حُدود جهنّم ، وتهرب من سدّتها ، وتعود
إلينا !

لكن المُختَصّر لم يُجب . بل وضع يده على كتف أبي ... ثم ساد
صمت .

وفي زاوية من الغرفة شَحَرَتْ قِطَّةٌ عجفاء .
ثمّ إنَّ السّرير ، الذي يرقُد عليه العمّ هوسيب ، اهتزّ ، وأعقبَتْ
ذلك خرخرة . ومال الرجل برأسه ولفظ آخر أنفاسه .
وعمّ الحزنُ الحيّ إكراماً لشيلار زوجة الميت .

المحتوى

٥	الإهداء.....
٧	تَحْشُرُم النحل.....
١١	هَرَّةُ أَبِي.....
١٣	مُيِيد حشرات جديد.....
١٨	الولد الضائع.....
٢٢	تاجر الجلود.....
٢٨	كاهن قرينتا.....
٣٠	موسيس محشيكيان.....
٣٣	موسيس محشيكيان أيضًا.....
٣٧	باييك ذو العين الصيابة.....
٥٦	في بيتنا ضبيع.....
٦٧	مطعم المغترين.....
٧٠	العلباخ ديمتري.....
٧١	ساناكريم بغداساريان.....
٧٣	عندما كان أبي نجارا.....
٧٨	أراكم في السماء أ.....
٨٠	أبي في روما.....
٨٦	سائق باص قرينتا.....
٩١	ابن أخت وزهر خارجية فرنسا في فندقنا!.....
٩٥	المصور سر كيس بولاديان.....
١١٠	السنهور.....
١٢١	المدفون.....
١٢٤	المنقون.....
١٢٨	حظّ أبي.....
١٣٧	دود القزّ.....
١٤٤	العمّ ميناس.....
١٦٢	العمّ هوسيب.....

صوت من جبال كَسَب : قصص وحكايات / زهراب عتيليان . —

نقله عن الأرمنية : نزار الخليلي . —

دمشق : تنفيذ : إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٩٣ . —

١٧٦ ص ؛ ٢٢ سم .

١ — ٨٩١ ع ن ت ص ،

٢ — العنوان ، ٣ — عتيليان ، ٤ — الخليلي .

مكتبة الأسد الوطنية

الإيداع القانوني : ٤٩١ — ١٩٩٣ / ٥

إشبيلية : تنفيذ ١ (ط ١) — ١٣٠٠ — ١٩٩٣ / ٦

التنفيذ :

إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع بدمشق

الطباعة :

دار الجمهورية للطباعة والنشر بدمشق





* وُلِدَ زوهراب عتبلّيان في بلدة
« كَسَب » عام ١٩٤٢ .

* تلقىُ تحصيله الابتدائي في مسقط
رأسه ، في المدرسة الإنجيليّة الخاصّة . ثمّ
عاشت نفسه الدّراسة ، فتوجّه إلى العمل
مُساعدًا لأبيه في خدمة الفندق الذي
يملكه وفي العناية بمزرعة الأسرة .

* ولكنّه ما لبث أن وجد في
نفسه ، وهو في سنّ الفتوة ، حاجةً إلى
التّعبير عن تخلّجات النّفس بالقلم . ومع
ضآلة حظّه من التّحصيل المدرسيّ ، أخذ
ينظّم الشعر ، ويكتب القصّة ، وتجاوز
ذلك إلى مُمارسة الرّسم والموسيقى .

* وهو يُقدّم لنا ، في كتابه الأوّل
هكذا ، بعض ما أمدّته به القريحة من
حكايات كتبها في سنوات الثّمانينات على
وجه الخصوص .

* تزوّج في العام ١٩٧٢ ، وهما
الآن أبّ لثلاثة أولاد (آبن وبتين) .

... وإِنَّكَ لتجد ، في تضاعيف هذا الكتاب ، ملامح من
حياة الجالية الأرمنية في كَسْب وغيرها من المدن السوريّة ، في
ما يُمارسون من عملٍ وَيَحْيُونَ من أمل ، فتشاركهم معاناتهم
وتشاطرهم أفراحهم ومسراتهم .

وذلك كلّهُ بأسلوبٍ يَغلبُ عليه طابعُ الحكاية الطريفة ،
والالتزامُ بالواقع المجهول بتراب الرّيف ونسِغهِ وعِطرهِ ، مثلما
يتّصف بلغةٍ سَلِسَةٍ قد أَضَفَتْ عليها التّرجمةُ الأنيقة جمالاً
ورونقا ...

تُما جعل الكتاب جديرًا بالقراءة

